إلى أخي مصطفى

ولد معاقا إعاقة شديدة في رجليه ولسانه ودماغه، وماتت أمه بعد يومين من ولادته، لكنه عاش سبعين عاماً، عاش ومات وحيدا لم يسمعه أحد ولم يستمع إلى أحد..

يلاحقني في يقظتي ومنامي، وأحاول الهروب، فأسقط على الأرض ويرجمني بالحجارة ..

الفهرس

منديل أزرق جميل

عندما سلم إلى إدارة السجن كل ما كان في حوزته من أمتعته ومتعلّقاته الشخصية، والنقود والساعة ورباط الحذاء، والملابس أيضا، واستلم بدلة السجن الكالحة الخالية من كل الملامح، متماثلة مع الكائنات التي تعيش هناك؛ السجناء والسجانون والميكروبات أيضا، وجد في جيب بدلة السجن منديلا قماشيا. كان شيئا ناعما جميلا مختلفا عن كل شيء في المحيط، حيث يبدو كل شيء قاسيا خاويا.

بدا هذا المنديل مختلفا عن السياق في نعومته وجماله ومعناه المؤثر. كان أجمل ما يمكن أن تمتلكه؛ قطعة فنية جميلة ورائعة، مشحونة أيضا بالذكريات، والعلامة الخاصة الخفية في بيئة قاسية خاوية، والإشارة

الجميلة التي كان يرسلها الحنان الممكن الحصول عليه في ذلك المناخ القاسي في درجة حرارته، وقسوة العمل والعلاقات المحيطة، عندما تربطه على رأسك مثلا، أو تبلله بالماء، أو حتى مجرد شعورك أنه في جيبك.

شعر بامتنان عميق للمنديل وفكرة وجوده. تساءل عن سر هذه الفكرة الجميلة في سياق كله قسوة وإذلال وكسر للإرادة، واعتداء على الحرية والذات والخصوصية. هل كانت الرسالة أنك قادر على الانعتاق؛ أنك حر وأنت في زنزانتك الانفرادية؟ أنك أنت مثل هذا المنديل الرائع الذي يتحدى القبح والملل؟!

عندما أفرج عنه وسلّم ما لديه واستلم أماناته التي في إدارة السجن، أعطاه السجان المنديل. خطر له أنه هدية وذكرى جميلة عن تجربة سيئة. قال مختبرا الفكرة: ليس لي، وجدته في بدلة السجن!

حدث ارتباك، واستغرب العقيد الذي كان يراقب. قال يلوم الجنود: خطأ من هذا؟ وأعاد السؤال عليه ليتأكد أنه ليس له، وأنه وجده بالفعل في بدلة السجن. وأكدّ له ذلك. تبادل العقيد والجنود النظرات!

ظلّ ممتنا لذلك السجين الذي ترك المنديل متعمد؛ ربما متعمدا، لعله يكون لسجين آخر بعده لا يعرفه. ظل على مدى أربعين سنة بعد خروجه من السجن يكرر في نفسه كل يوم خمس مرات؛ لقد وصلت هديتك يا صديقي، وكانت هدية جميلة لا تنسى! أيها الصديق الذي لم يعرفني ولم أعرفه، ولم يتح لي أن أشكره مواجهة، هذه رسالة شكر أزجيها إليك،

مضافاً إليها الذكريات وعدم النسيان. أربعون عاما مضت، ومنديلك الذي أهديتني إياه، أو أبقيته لي، أو نسيته، يصاحبني مثل رفقة جميلة مؤنسة في طريق موحشة.

لماذا بقيت في هذه الطريق وحيدا، كما لو أنني في زنزانتي الانفرادية؟ يتساءل ويجيب نفسه ما الحياة سوى طريق تسلكها وحدك، كما لو أنك محكوم عليك بالفردية والانفراد. كل ما يمكن أن تحظى به في الحياة.. منديل أزرق جميل.

محمية طبيعية

يركض الأسد ويزأر في المحمية الطبيعية متظاهرا بالاعتقاد أنه في غابة حقيقية، .. وأدرك النمر؛ لا بد أنه أدرك أن الغزال الذي مرّ قريبا منه ثم افترسه؛ لم يكن ذلك إلا مسرحية مدبرة، فلم يحدث معه من قبل مثل ذلك في الغابة، وفي اليوم الرابع لوجوده في المحمية أدرك النمر أن الكاميرا تسجل كيف يفترس الغزال، فأظهر مزيدا من البراعة تفوق بكثير ما كان يؤديه في الغابة.. هذا ما يجعل البرامج الوثائقية في المحميات والحدائق المفتوحة أجمل منها في الغابات!

البشر في المحمية من السكان الأصليين يعيشون فيها يصيدون ويجمعون الثمار ويرقصون ويغنون على نحو تبدو حياتهم كما كانت على مدى القرون، .. كلما جاءت مجموعة من السياح يهرع الآدميون في المحمية

يحملون رماحهم يطاردون الغزلان والحمر الوحشية، أو يشعلون النيران ويرقصون، .. لا تخطئ النظرة البديهية الافتعال والمسرحية في قصص حياة الناس والحيوانات في الغابة المحمية، وهذا يزعج إدارة المحمية ويهدد تجارة البرامج الوثائقية وسياحة البيئة والمغامرات، لكن ما يزعجهم أكثر هو ملاحظات جيمس المتبرع الكريم والثري والمتحمس لحماية البيئة والحياة الطبيعية، وانتقاداته للمحمية أنها تعمل ضد أهدافها وتهدر التبرعات في إفساد البيئة وحياة الناس والكائنات الحية فيها، .. ثم إنه قرر أن يزيد من فترات إقامته في المحمية ويتدخل في كثير من سياساتها، ويدير بنفسه برامج وأعمالا يعتقد أنها الفكرة الأصلية للمحمية، مدرسة للناس في المحمية وتسجيل خبراتهم وتجاربهم البيئية كما هي، وإنشاء وتنظيم حرف وأعمال وأسواق وموارد وحياة طبيعية وحقيقية للناس والكائنات الحية.

شاتل؛ الفتى الذي تعلم القراءة والكتابة واللغات الأوروبية وصار مرشدا سياحيا في المحمية؛ أخبر السياح كيف تجري الأمور في المحمية،.. لكن السكان الذين أعجبهم كثيرا أسلوب الحياة والعمل الجديد في المحمية؛ قليل من العمل وكثير من اللهو والكحول لم يعجبهم شاتل ولا جيمس وفضلوا عليه الإدارة، قالوا إنه مسحور ونقل اللعنة إلى ابنهم شاتل، ..

قررت الإدارة أن تعلم شباب وصبايا المحمية التصوير عندما يكونون في حالة حقيقية من العمل والرقص والغناء والصيد، وتعلّم السكان أكثر عمّ يعجب جيمس والسياح وصاروا يطبقونه بذكاء واحتراف، .. كان تسجيل تلك اللحظات موردا كبيرا للإدارة ومصدر سعادة ورضا

جيمس.

في يوم كان جيمس مسافرا بعيدا عن المحمية، وكان شاتل يسير وحده في المحمية (التقرير الجنائي يقول ذلك) فالتهمه أسد، .. قالت الإدارة معززة إفادتها بتسجيل الكاميرات إنه كان يسير في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ، إذ يجب على الناس تجنب الظهور في أوقات وأمكنة معلومة تنتشر فيها الحيوانات المفترسة.

قال مجلس الإدارة لجيمس: جميع سكان المحمية سعداء؛ الناس والكائنات الحية المفترسة منها والطرائد أو العشبية الكبيرة والطيور، ويتكاثرون، والسياح والمحطات التلفزيونية ووسائل الإعلام وجمعيات البيئة وحماية الطبيعة سعداء، والتبرعات تزيد، .. ليس مزعجا في هذه المحمية يا سيدي إلا البوم! فهو سحر شاتل وحبس المطر عن المحمية، وتسبب في نقص الغذاء والخراب والخسائر.

قرر الأهالي بمشاركة الإدارة إقامة احتفالات طقوسية لحماية المحمية والناس من لعنة البوم ولجلب المطر، .. وفي المساء مضى جيمس متحمسا للاحتفال، كان متحمسا في المشاركة في الطقوس أكثر من سكان المحمية أنفسهم، .. تساءلت ماري ابنة جيمس لماذا يبدو متحمسا الى هذا الحدّ؟، قالت لها ليندا أمها حتى لا يعتبره الناس ملعونا أو جالب اللعنة، .. كلّ الذين حاولوا أن يغيروا شيئا في المحمية قدمت دماؤهم إلى النار المقدسة لطرد اللعنة!.. قالت ماري لكن لماذا هو متحمس كما لو أنه يصدق بالفعل، قالت ليندا أمها هذا ما يحيرني ويريبني!

مصنع النسيج

بكى عيسو أكثر يوم في حياته عندما ذهب بصفته رئيس جمعية خيرية لاستلام جثة من المستشفى لم يتعرف أحد على صاحبها. كان رجلا يبيع المناديل الورقية عند إحدى الإشارات الضوئية في المدينة، ودعسته شاحنة اقتحمت المربع الذي يقف فيه. نقله عيسو بسيارة الجمعية إلى المقبرة، وصلى عليه مع ثلاثة عمال، ومكث بجوار قبره يبكي ساعات طويلة، واستل من جيبه المنديل الأزرق الجميل الذي ظل يحتفظ به طوال حياته!

يتذكره عيسو عندما كان يلتقيه وهو يعمل في مصنع النسيج الأكثر أهمية وشهرة في المدينة لأجل تلقي التبرعات للجمعية. كان أهم شخص في المصنع؛ يتقرب منه ويعرفه جميع المشتغلين بالسياسة والعمل الاجتماعي والإعلامي. لقد تلقى تقديرات وشهادات عدة، وسافر إلى جميع دول

العالم يتعرف على أسواقها ومصانعها. وكان يلتقيه المدير العام كل يوم مرتين على الأقل، ويعامله جميع المديرين وأعضاء مجلس الإدارة باحترام وتقدير. كان يحيّره كيف يكون أهم من المهندسين والفنيين وسائر العاملين الذين يتوقف المصنع من دونهم، ولكنه تقبل ذلك بسرعة. يستقبل كل يوم أعضاء في البرلمان وقادة المجتمع والشركات ومندوبي الصحافة ووسائل الإعلام، ويعرض بمهارة فائقة مرافق المصنع ومنتجاته، ويستضيفهم في الفنادق ويقدم لهم الهدايا والتذكارات، ويزودهم أيضا بالتقارير والأخبار والمقابلات جاهزة للنشر والبث.

وهناك أيضا ما كان يشجعه على الأداء المتقدم؛ مبنى المصنع جميل وأنيق، بواجهات زجاجية مدهشة، وقاعات مكيفة وجميلة، وضيافة سخية، وواجهات أنيقة تعرض منتجات المصنع التي حفظها جميعا وعرضها للضيوف بإتقان وكفاءة، ومواقف سيارات وحديقة جميلة مترفة... والعمل مثل خلية نحل صامتة.

ذات يوم بعد عشر سنوات من العمل والمجد، عرف أنه لا يوجد مصنع في الواقع. ليس هناك إلا مستودعات ضخمة مليئة بالملابس والأقمشة المستوردة من الصين؛ فلم يكن المصنع سوى وكالة استيراد ومستودعات هائلة تستقبل الملابس والسلع بالمواصفات والعلامات والأسماء والشعارات المعدّة لتبدو وكأنها صناعة وطنية تقدم في الأسواق والمؤسسات. الملابس الموحدة والجميلة في المدارس والمستشفيات والمصانع، والعلامات التجارية في الأسواق للملابس والأقمشة والستائر،

لم يكن يُنتج منها في البلاد سوى تصميمها المنسوخ من الحاسوب لتوضع عليه علامات وأسماء! ولم يكن المشهد الذي يقدمه للزوار والضيوف والزبائن سوى عرض مسرحي أنيق متقن؛ مكائن تقدم نموذجا يحاكي العمل وتحرك الخيوط ثم تعيد تفكيكها في نهاية المسار وتعيد نسجها وغزلها... هكذا بلا انتهاء أو توقف. لم يكن عمله ومجده سوى تطبيق حاسوبي بـ«فوتوشوب»!

صدمته الكبرى كانت عندما اكتشف أنه الممثل الوحيد في المسرحية من غير أن يدرك، وأنه وحده لا يعرف ذلك؛ العمال والمهندسون والمحاسبون والسكرتيرات وعمال النظافة والمسؤولون السياسيون ونواب البرلمان ومندوبو الشركات والمؤسسات التي تشتري من المصنع... كلهم يعرفون، لكنهم جميعا كانوا يبدون دهشة عظيمة وانبهارا بالأداء والاتقان، ويبذلون حماسة وولاء كبيرين للعمل والمصنع، ويضيفون إلى ذلك انتماء وطنيا، فيتحدثون بحماسة فائضة وصدق عن الأوطان والصناعة الوطنية، كلما تحدث مع أحد يجده يعرف، ثم يلومه على أنه يلحق الأذى بالبلد والاقتصاد الوطني والعمل العام والتطوعي والأندية والجمعيات التي تتلقى التبرعات من المصنع. هكذا تحول من الموظف المثالي في المصنع إلى مخرِّب وكاره للعمل والإنجاز... وطابور خامس.

في أحد الأيام عندما جاء إلى عمله في الصباح، وجد أن بطاقته لا تسمح له بالدخول، ولم يلتفت إليه أحد من العمال والحراس، ولم يجب أحد من المديرين والموظفين على هاتفه، ولم يستقبله أحد من كل الذين

عرفهم من المتعاملين مع المصنع أو الأصدقاء، كما لم يستطع أن يجد عملا بديلا. كان يلوح بأكياس المناديل الورقية بجوار الإشارات الضوئية مدركا أنه لا يملك فرصة سوى الموت! لوّح بذراعه لسائق الشاحنة كأنه يدعوه برجاء... ومات شاكرا له أنه لبى دعوته!

صيد الثعالب

منذ تحول عمله في الحراسة إلى مراقبة الشاشات والكاميرات الالكترونية والمشبوكة بالأقمار الصناعية يمضي عيسو وقتا طويلا في محاولة فهم كيف تحول صيد الثعالب من عمل يومي أساسي يعتمد عليه بقاء الناس على قيد الحياة إلى هواية لنبلاء المدينة، لكنها ليست مجرد هواية؛ يقول عيسو للحارس الآلي «الروبوت» والمنشغل بلا جدوى في فهم اللعبة، صيد الثعالب يا صديقي هي لعبة إدارة المدينة، هل فهمت؟

أتذكر أنك قلت لي ذلك، يقول الروبوت، وقد حللت مليارات المعلومات منذ ثلاث وعشرين ألف سنة وتتبعت عمليات الصيد وتشكلات القرى والمدن ولم أفهم العلاقة بين السياسة وصيد الثعالب.

سأقول لك وإن كان ما أقوله هو ما تبقى لدي مما أعرفه ولا تعرفه

أنت؛ يقول عيسو للروبوت؛ المدينة تدار بالانتخابات أليس كذلك، لكنها تدار على طريقة صيد الثعالب، أو تحول صيد الثعالب إلى عمليات إدارة المدينة، أنظر يا صديقي في هذه الرسوم والبيانات التي أعددتها، لكن أرجوك أن تهز رأسك قليلا وأنا أتحدث، لا تنظر إلي هكذا في حياد وبلاهة.

لست محايدا بل أستمع باهتمام كبير وأحاول أن أعلم نفسي أن أهز رأسي وأقتبس حركة عينيك في التعبير والاستماع، غدا أو بعد غد سوف تراني أفعل ذلك،..

نعم أعرف ذلك، وهذا ما يعجبني فيك؛ أنك تتعلم في سرعة وتعلمني أيضا، أنظر إلى لعبة صيد الثعالب؛ ليس من أدوار في اللعب متاحة سوى أن تكون صيادا أو ثعلبا أو حاشية للصيادين، لا تستطيع أن تكون صيادا إلا إذا كان أبوك صيادا، ويمكن لأحد من الحاشية بنسبة واحد لكل ألف أن يتحول إلى صياد، وبالطبع إذا كنت ثعلبا فلا تستطيع ألا تكون ثعلبا، يبدو ذلك مستقلا عن الحياة مثل السياسة تماما ولا يضيف إليها ولا ينقص منها شيئا، فإن لم تكن ثريا عاطلا عن العمل أو تابعا للثريّ أو ثعلبا فإنك لا تعلم عن اللعبة وأخبارها ولا تهمك في شيء ولا تؤثر في حياتك شيئا، هؤلاء الذين هم ليسوا صيادين أو حاشية للصيادين أو ثعالب هم الأغلبية الكبرى، الصيادون ليسوا أكثر من عشر بالمائة، والثعالب ربع أهل المدينة، لكن الصيادين يستحوذون على 84 في المائة من الموارد ويتحكمون بالسياسة والتشريع والعطاءات، وبرغم ذلك فإن الأغلبية الكبرى تدبر حياتها بهامش ال 16 بالمائة !

لا تستطيع أن تمارس السياسة أو صيد الثعالب إلا إذا كنت تملك فائضا من الوقت والمال، وسرّ اللعبة كما السياسة هو يجب أن يكون هناك ثعالب ليكون هناك صيد ولذلك يحرص الصيادون على الحفاظ على الثعالب وحمايتها وتكثيرها.. لأجل التسلي بها وصيدها. هذا الجزء من اللعبة/ الهواية يسمى ديمقراطية، فإذا تركت الثعالب حرة فإنها تفسد المدينة، فيلجأ أهل المدينة إلى الصيادين لحمايتهم منها، السياسة هي إطلاق الثعالب، والديمقراطية هي حمايتها، هل فهمت؟ لكن أسوأ ما في هذه اللعبة أنك حين تكون ثعلبا فإنك مجبر على المشاركة، ولا تقدر على الانسحاب .. وكلما امعنت في الهرب أو التخفي تزيد اللعبة متعة وإثارة. والسر الآخر المثير في اللعبة أن الحاشية هم مصدر الاستمرار والإثارة في اللعبة فيجعلونها أكثر حماسا وضرورة، وهم أكثر ولاء وانتماء للعبة من الصيادين أنفسهم؛ لدرجة أن الصيادين أنفسهم لا يستطيعون إيقافها لو أرادوا ذلك بالفعل، فالحاشية هم من يعلمون كل شيء عن الثعالب ويقدرون على إخفائها أو حمايتها أو استفزازها أو إطلاقها، وهذا يسمى في السياسة الدولة العميقة.

لكن الروبوت وإن فهم لعبة الثعالب ولم يفهم علاقتها بالسياسة أخبر عيسو بمراجعات وسيناريوهات كثيرة في اللعبة والمدينة والمحمية، وأنها تسير في اتجاه آخر، .. لا تحاول أن تفعل شيئا يا صديقي، ففي هذه المدينة أن تكون ذكيا يعني أنك مثل مصاب بالجرب، لكن أنظر معي إلى ما يحدث في فضاء المدينة غير لعبة صيد الثعالب، فالكائنات ليست كما يبدو للصيادين والثعالب والحراس،...

فكما تغيرت النمور والأسود وسائر الحيوانات في سلوكها في المدينة منذ كانت محمية فإن المدينة نفسها تتغير، صحيح أن الأسود أعجبتها الحياة وتغيرت في جيل بعد جيل وصارت حيوانات أليفة وجميلة، والمدينة تبدو آمنة لا تخاف إلا من الثعالب، لكن الجعلان قلبت اللعبة رأسا على عقب، فلم تعد مجرد كائنات تخلص المدينة وأهلها من الفضلات لكنها قوة سياسية حكمت المدينة...

مشكلة البشر أنهم ينسون لكن حين تكون روبوتا فإن كل ما يحدث يظل مسجلا ويعمل لديك، .. هل تعلم كيف تحولت المحمية إلى مدينة؟ تحولت كائنات كثيرة إلى ما يشبه البشر، ربما جميع الحيوانات التي شاركت في حفلات النار والرقص في المحمية تحولت إلى بشر، هكذا تختلف الكائنات البشرية حسب أصولها وتتعدد، ذئاب، حمير، أفاعي جعلان، حمائم، صقور، غربان، خفافيش، وتتجمع في أحزاب وشلل ومجموعات، تتنافس، وتتعاون، وتعمل، وتختلس، وتفكر، وتستلقي على الرصيف.

لا يتذكر عيسو كيف صارت المحمية مدينة، لكنه بدأ يتساءل منذ ترك العمل في صحيفة المدينة وصار حارسا..

عندما عمل عيسو في صحيفة المدينة «ادوميا» كانت المدينة تتداعى والصحيفة توشك على الانقراض. قال له رئيس التحرير والذي كان أيضا كاهنا للمعبد ورث الكهانة من غير معرفة أكثر من العدّ من واحد إلى تسعة أن رئيس البلدية الذي تولى الرئاسة بمعرفة تصل الى العدّ من واحد إلى اثنين؛ والحال أن هناك عملية معرفية معقدة في العدّ عند الانتقال

من اثنين إلى ثلاثة ومن تسعة إلى عشرة ويرمز إلى التطور الحضاري بتطور مهارات العد أكثر من اثنين ثمّ أكثر من تسعة .. ما علينا! المهم أن رئيس البلدية طلب أن يخصص مقال أسبوعي لعبد الدار سكرتير رئيس البلدية. قال عيسو ببراغماتية متطرفة طبعا يمكن للسيد دار أن ينشر مقالة أسبوعية وحتى يومية إن كانت هذه رغبة رئيس التحرير ورئيس البلدية .. قال رئيس التحرير ولكن المشكلة أن عبد الدار لا يقرأ ولا يكتب ونريد أن تكتب له مقالة أسبوعية.. قال عيسو ولكني اكتب مقالاتك ومقالات رئيس البلدية. قال رئيس التحرير لا داعي أن تكتب مقالاتك التي تنشرها باسمك واكتب بدلا من ذلك مقالة باسم عبد الدار.. ويا دار ما دخلك شرّ!

الحذاء

في القاعة المغلقة والمهملة كانت التسلية المفضلة أن يعرف ويراقب ما يدور من خلال استماعه لوقع الأحذية في الممر، كان الاستماع لقرع الأحذية هو التواصل الوحيد مع المؤسسة والعاملين فيها، وكان هذا يخفّف كثيرا من قسوة الجلوس وحيدا في قاعة مغلقة لمدة تسع ساعات يوميا (العمل ثماني ساعات وهناك استراحة لمدة ساعة كانت في الحقيقة ساعة عمل إضافية)

صوت قرع حذاء نسائي على البلاط، الصوت منتظم بطيء ثقيل وواثق، مصحوب بأخبار الدائرة وسلّة النميمة، قرع الحذاء مثل نشرة الاخبار، كل طرقة تقول خبرا؛ وصل أبو حمدان الساعة ثمانية ونصف، معه ساندويتش مرتديلا، لا بد أنه حصل على مكافأة الإضافي، أخبار

العشق والعشاق، انتقادات الزملاء ، رأي مساعد المدير المتذمر والساخط ابدا.

يتوقف الصوت، لا بدّ أنها وصلت المكتب، ثم يعود الصوت مرة اخرى، قرع فوضوي مرتبك، مليء بالشعور بالدونية والكراهية لكل الآخرين، صوت حذاء شخص يعتقد انه يقدم الى المدير أكثر مما يحصل عليه،.. وشعور بالذنب.

يتحرك على الفور صوت حذاء راقص خفيف واثق مشحون بالهمس والتسلل، وتمر فترة طويلة قبل ان يعلن صوت فتح الباب وإغلاقه عن انتهاء الاجتماع الاكثر أهمية في العمل اليومي، ثم يعود صوت الحذاء ولكنه بطيء مرتبك فوضوي، محمّل بالرسائل المكتومة عن الإفطار والسجائر والأحلام والوشايات والاقتراحات، ومحاولة تسوية الشعر المنكوش الفوضوي وتهدئة الانفعال والانفاس وضربات القلب!..

صوت حذاء رجالي سريع مموه يتظاهر بالعمل ويشي بالتملق، ..

صوت اخر بطيء متردد ثم هو يخرج سريعا غاضبا، أكيد لا اجازة ولا إضافي!

صوت حذاء رجالي متردد، زميل زائر يريد تمضية الوقت، كان صديقا للمدير أيام الجرب!

صوت حذاء غامض، لا بد انه صاحبه مقوس الظهر مطأطئ الرأس، أبو حمدان يوشك على التقاعد، خدماته قليلة الفائدة، يحاول أن يتقرب من الجميع ويرضي الجميع، ولم يعد لديه ما يخبر به المدير!

عندما استدعاه التلفزيون للمقابلة ضمن ترشيحات ديوان الخدمة المدنية لم يذهب، لأنه كان مدركا منذ البداية أنه لن يقبل، طبعا سيرسب في المقابلة، وإن نجح وقبل فسوف يفصل من العمل.

وحتى عندما عين أمين مكتبة في مكتبة مهجورة، وكانت وظيفته عمليا تسلية الفئران والصراصير وحراسة مجلات قديمة بائسة يراها المدير العام القادم إلى المكتبة بعد خبرة طويلة في مجال كرة القدم عبئا، وكان يطلب مراكمتها في غرفة قذرة، ثم وكلّما امتلأ المستودع ولم يعد قادرا على الاستيعاب كان يتصل بشركة ترسل شاحنة لنقلها إلى ورشة لفرمها واستخدامها في منتجات ورقية وكرتونية، صار يعتقد فيما بعد أن مدير المكتبة رحمه الله والذي كان يكره الكتب كان أفضل من يدرك دور ووظيفة المجلات والكتب.

كان المدير يراه شرّا يجب عزله ومحاصرته، ويحرص على استبعاده من كل دورة تدريبية أو فرصة ما، والواقع أنه استبعاد أفاده كثيرا في عزلة طويلة وظفها في القراءة والكتابة والتعليم الذاتي،..

وعندما قدم استقالته جاءته موافقة الوزير عليها خطيا بعد ربع ساعة من تسليمها إلى المدير، قال له رئيس الديوان: هذا أسرع قبول استقالة رأيته في حياتي، نقلها سائق دراجة الدائرة فورا إلى الوزير في مبنى آخر بعيد عن المكتبة، وعاد يحمل معه البشارة، قبول الاستقالة، شعر المدير أنه أنجز شيئا عظيما وأراح ضميره، وحين مرّ بمكتبه لتحيته، قال معترفا ومعتذرا إن أشخاصا ذكرهم بالاسم طلبوا تطفيشه، وأرجو ألا تغضب

من التقارير التي كتبت فيما قلته وفعلته، سأله: ولماذا لم تطلب الجهات المعنية بنفسها ذلك، وقال له وبصدق، لقد كنت حريصا أن أزود الموظف المكلف بالكتابة إليك بكل ما يمكن أن يجعل التقرير دسما، ويمنحه بخشيشا، كان بالفعل يشعر بسعادة عظيمة عندما يعلم أنه تلقى بخشيشا بسبب التقرير، كأنه يتصدق عليه، وخرج من مكتب المدير لا يحمل نحوه شعورا سوى بالشفقة، .. وبعض الاحترام.

توفي المدير العام، وتوفي أيضا أبو فهد أمين المستودع والمخبر الخاص بالمدير، كان يحضّر كل يوم عشرين قصة مدهشة عما يدور في المؤسسة، كان يساعده بصدق لأن الزملاء يكتفون بتقديم الشاي والقهوة له، ولكنهم يصمتون في رعب ولا يتحدثون إلا بمديح المدير، .. كان وربما مازال أمتع شيء في الحياة ان تشتم المدير وتنتقده وتخيفه وتهدده وتروي قصص المؤامرات عليه وأنت تعلم أن أبو فهد سوف يوصلها بكفاءة مع البهارات اللازمة التي يعرف ان المدير يحبها، .. رحمه الله (المدير) لو كان حيّا، لو كنت كما أنا الآن لاتخذته المثل الأعلى، كان الوحيد الذي يعرف أو يجرؤ على إعلان معرفته بصراحة أن الكتب لا تصلح لشيء سوى إرسالها إلى مصنع الورق كلما امتلأت غرفة المكتبة، كيف تجعلك كراهية الكتب والثقافة والمعرفة مديرا عاما من الفئة العليا في مجال الثقافة والكتب والمعرفة واقتصاد الإبداع؟ لقد خسرنا بموته رجلا عظيما أدرك أهمية الكتاب والملكية الفكرية في حياتنا واقتصادنا ومواردنا، .. عليك سلام الله وقفا فإني رأيت الكريم الحرّ ليس له عمر!

لكنه قرأ في الطابق تحت الأرضي كثيرا وعلّم نفسه الكثير أيضا، فلم يكن له عمل سوى حراسة الغبار والصراصير والفئران .. والكتب والمجلات وتسلية أبو فهد كاتب التقارير، .. وكلما امتلأت الغرفة بالمجلات يتصل المدير بابن خالته سائق الشاحنة ليحملها الى مصنع الورق،.. يظل بعد ذلك وقت كثير للقراءة والكتابة!

في مسلسلات توم وجيري، يستقوي الفأر جيري على عدوه الأزلي توم القط بالكلب، يمسك الكلب القط ثم يجعله على هيئة كرة، ويدحرجه بقوة واستمتاع إلى البحر، فيغوص في القاع، وتهاجمه الأسماك تعضّ ذيله، وتتكرر اللعبة مرة ثانية وثالثة، ولكن بعد ذلك كلما وجد القط المسكين نفسه في مواجهة قدره أمام الكلب يكوّر نفسه ويدحرجها بعنف إلى البحر، ويغوص إلى القاع، وعندما ينشغل عنه السمك او لا يهتم به، يمسك بواحدة منها ويضع ذيله في فمها!!

استقال من العمل الحكومي، وانتقل إلى العمل في القطاع الخاص، لكنه وجده أيضا مغلقا بقسوة وإحكام، ومقسما بين متن تهيمن عليه الحكومة وهامش ترتع فيه المعارضات السياسية ذات الولاء والانتماء الدائم للمعارضة، حتى صار الهامش مصالح مهمة لنخب المعارضة، شيء يشبه ما يحدث في السجون والعشوائيات والاحياء المهمشة من تجارة واستثمارات وجماعات مهيمنة لا تختلف عن النخب في الحكومة وفي السوق التابع لها.

وترك المعارضة السياسية، وسافر إلى الخليج ليعمل في مؤسسة كبيرة

ومهمة، وحصل على بيت جميل وسيارة فارهة جديدة لأول مرة في حياته. لكن يبدو صعبا بعد الأربعين أن تبدأ حياة جديدة، وفي بلد جديد وأصدقاء جدد، فعاد مرة أخرى إلى الأردن يعمل بمفرده يحاول أن يجد مكانا في السوق وكأنه يبدأ حياته من جديد، وكأنه تخرج لتوّه من الجامعة، وبدا له أنه صنع سيرة ذاتية جديدة وتاريخا مهنيا واجتماعيا جديدا، ولم يكد يصدق أنه حصل على عمل جيد ومهم في مصنع النسيج، ثم تقدم في عمله بسرعة، لكنه شعر بالخديعة مرة أخرى، أو أنه لم يقدر مواصلة الشعور بأنه ترك نفسه تنخدع!

إلى المدرسة

يجد عيسو نفسه دائما مدفوعا إلى آدوميا؛ القرية المهجورة، يتأملها من الجبل المطلّ عليها، .. القرية التي تنسب إلى هابيل ابن آدم، ووجدت فيها آثار للنار وأدوات وفؤوس حجرية عمرها تسعمائة ألف وخمسين ألف سنة؛ ظلت يوما بعد يوم وسنة بعد سنة وقرنا بعد قرن منذ اثنين وعشرين ألف سنة يستيقظ أهلها كل يوم قبل شروق الشمس يتبعون بقراتهم إلى الحقل ثم يعودون في المساء، ثم فصلت عن محيطها، وصارت كأنها أفلتت من العالم، ولا يعلم بها إنس ولا جانّ، كأنها معلقة بالكرة الأرضية بخيط، وهي تسبح في الفضاء لا تراه ولا تحس به يتأرجح في رعب، ثم أجهز عليها التحديث، صار لها مثل حلزونة فقدت حصنها.. يظن الذين أخرجوها من حصنها أنهم يفعلون خيرا لها.. لكنها فقدت كل شيء.. اختفت القرية وانقرض الناس، لا فرق إن بقوا احياء أو اختفوا، أنجبوا أولادا وبنات

أو لم يتزوجوا، .. ما من خبر عن ربيع وأميرة منذ اختفت القرية ومضى الناس يبحثون عن طريقهم في الخوف والظلام، .. ولن تعرف شيئا حتى لو عرفت أخبارهم، اختفى ربيع وأميرة،.. واختفى عيسو أيضا، من أنت عندما تفقد أسلوب حياتك ولا تنشئ أسلوبا جديدا؟ لا تعود موجودا، حياتك تدل عليك كما يدل الضوء المنعكس عنك.. نحن لا نرى الناس والأشياء ولكنا نرى الضوء المنعكس عنها!

يحدث عيسو نفسه وهو يطلّ على القرية من الجبل الذي يحسبه مقدسا؛ .. ربيع الولد الضخم، أسود اللون، صامت لا يتكلم أبدا كأنه أخرس، لولا المرات القليلة التي تكلم فيها لاعتقدت أنه أخرس، لم يكن قادرا على قراءة أو حفظ شيء من كل ما يعلّمنا إياه المعلم، وأميرة الصبية الجميلة الوادعة بعينيها الخضراوين الرائعتين، ونطقها الظريف للخاء حاء، تقرأ نصوص القراءة بإتقان وصوت متدفق تزيده الخاء التي تنطق حاء عذوبة..

كان ربيع يتقبل الضرب المتوحش بصمت وهدوء لا يمكن وصفهما، الحزن الغامض العميق في عينيه ووجهه لم يكن بسبب الضرب، لكن في قصته الخاصة، كان يبدو وكأنه لا يعرف أو لا يشعر أن المعلم يضربه، .. طلب منه المعلم يوما أن يقف على ظهر «الرحلاية»، ليستفيد من فضاء الغرفة بحرية وقدرات إضافية في الضرب لم يكن يجدها في الزحام الشديد، وقف ربيع وصار المعلم يضربه على قفاه ورجليه بكل ما يملك من قوة وعزم، وربيع صامت راسخ كأنه «أبو الهول».. وأخيرا هُزم المعلم، تركه وانسحب ولم يعد يضربه أبدا، كأنه صار يخاف منه، .. في الفسحة بين

الحصص يتحول ربيع إلى كائن أليف مبتسم نركض ونلعب معا، وإن كان يحافظ على صمته وحزنه وغموضه، .. مثل أبو الهول.

ترك المعلم ربيع وانصرف إلى أميرة، قرر اليوم أن يعاقبها إن لفظت الخاء حاء، كانت غير قادرة على ذلك، وفي يوم سابق قال بلطف طارئ إنها لا تستطيع ذلك، اليوم بعد هزيمته أمام ربيع ذهب إلى أميرة، وطلب منها ان تقول خاف، فقالت حاف، فضربها بالعصا على يدها، ثم صار يكرر القول خاف وهو ترد وراءه حاف، وفي كل مرة يضربها بالعصا، ..

اكتفى الأستاذ بما يحتاجه للتسلي والانشغال بجلد الأولاد البنات الخمسين المحشورين في غرفة صغيرة، كانت تبدو مترامية الأطراف، ولكن تبين لعيسو عندما عاد إليها بعد خمسين سنة أن مساحتها خمسة عشر مترا مربعا، يصعب أن تتباعد الجدران أكثر من شجرة الحور! ويجد كل يوم عشرة على الأقل يتسلى بضربهم فينتهي اليوم الدراسي ويذهب الى بيته مرهقا جائعا، تأتي ابنته الصغيرة من بيته المجاور للمدرسة؛ تطلب منه أن يأتي للغداء، فينادي احد الأولاد ويطلب منه أن يحملها الى البيت،...

يقول عيسو محدثا نفسه .. هذا المكان المهجور يروي قصص آباء وأمهات قدموا لنا ما تجاوزنا به حياة صعبة قاسية، صرنا ما نحن اليوم عليه، بقدر من المال والطعام واللباس لا يساوي شيئا! ولو وزن بما نقدمه لأطفالنا فإنه لا يذكر، ولكنهم صنعوا لنا أفضل مما صنعنا لأطفالنا! وأنشأوا لنا حياة نحن اليوم عاجزون عن مواصلتها لأبنائنا» .. في تلك الليالي التي تحلّ بعد نهار طويل من العمل والقسوة، تنسحب الأمهات

جانبا مستعينات بالظلام لإخفاء الحزن والدموع، وليتركن العشاء للأطفال، فينادون الأمهات ويكررون النداء ليتعشين معهم، يجبن بصوت خافت لإظهار الجلد عندما تأكلون أنتم نشبع.. كان الأطفال في آدوميا يحسبون أن الأمهات يشعرن بالشبع إذا أكل الأبناء!.

وحين يأتي رمضان في شهور تشرين الخالية من الطعام، حيث يأكل الدّوري ظفره كما تقول الأمهات معزيات أطفالهن، لم يكن ثمة فطور أو سحور سوى ما أمكن لبدو فلاحين أن يخزنوه من طعام. لم يتعلموا خبرة الحضريين في تخزين الطعام وتصنيعه لمثل هذه الأيام، ولا ظلوا بدواً يقدرون على الرحيل وترك قراهم بحثا عن الحياة.

ينظر عيسو إلى البيوت؛ بقايا البيوت التي يعرفها جميعا بيتا، ويتذكر الناس الذين كانوا يعيشون فيها، على نحو يزيد أضعافا عمن يعرفهم ويتذكرهم في كل الأماكن التي رحل إليها وعاش فيها؛ يتذكر الأساتذة والمحامين والأطباء والمهندسين والضباط والمهنيين الناجحين والمتفوقين؛ تحدّوا العالم الذي رفضهم، صحيح أنهم ما يزالون يواجهون الإقصاء وهم متعلمون وأصحاب خبرات متقدمة، كما كان آباؤهم يواجهونه من قبل وهم فقراء لا يقرأون ولا يكتبون، ولكنهم اليوم يُشعرون هذه النخب الطفيلية الملتصقة بخيرات الأوطان مثل العلق أنهم وآباؤهم عاشوا وماتوا مثل الشجر؛ ليس فقط واقفين ولكن قادرين على صناعة الحياة وإنشائها، ولم يحتاجوا لأجل ذلك سوى الشمس!

في ليلة وفاته روى سالم الحمدان وهو يحتضر للناس حوله قصصا

ونكاتا، كانوا يضحكون سعداء كما لم يفعلوا في حياتهم من قبل، ثم ودّعوه ومضوا إلى بيوتهم، وبعد لحظات قليلة أسلم الروح! ولكن سالم بكى وأبكى الرجال قبل أربعين عاما من وفاته؛ عندما توفي ابنه عليّ ابن الخمسة عشر ربيعا، مات مريضا بالسّل. بكى سالم بكاء مرّا مثل الأطفال، تجمع الرجال يحاولون تهدئته، وهو ينشج، ويقول «ما أنا رحت أجيب له تفاح، ليشيابه يا عليّ ما استنيتني!».

أرسل الآباء أبناءهم الى المدرسة، وصار اليوم الأول في المدرسة مميزا وفاصلا، لا تتذكر منه فقط اللباس الجديد الذي أحضروه لك، والحذاء الذي ربما تلبسه للمرة الأولى في حياتك، وشهادة الميلاد التي تستخرج للمرة الأولى، وربما تكتشف أن اسمك المسجل في الوثيقة ليس هو اسمك المتداول، فقد حدّد «ا لمختار» لك اسما آخر هو غالبا اسم جدّك أو جدّتك دون علم أو مشورة أهلك، وفي بعض الأحيان ربما يكون الأهل قد غيروا اسمك بناء على مشورة «البصّارين» الذين يتصلون بالأرواح والجن أو يستشيرون الكتب الروحانية، ولم يفطنوا إلى أن اسمك السابق مسجل في الوثائق، ترى كيف ستتعامل معك الأرواح وبأي اسم في هذه الحالة؟

المدرسة نهاية التمرد والحرية، تدخل في صندوق يعيد تشكيلك حسب مقاساته ومزاجه، يجب أن تستأذن كلما خرجت أو أردت الخروج، سوف ترفض ذلك في المرة الأولى، ولكن العصا تعلّمك، ويجب أن تقبل بالضرب، تفتح يدك لعصا المعلم موافقا، تتمرد ربما في المرة الأولى، ولكنك ستجد أن العقوبة مضاعفة، وربما تجد نفسك تفكر وتسلك مثل المجموع

من غير حاجة إلى ترويض، يسيطر المعلم على خيالك وأحلامك، يأمرك وينهاك، وقد يضربك بهدف التسلية والاستمتاع، يحبّ المعلمون منظر الطفل وهو خائف يتوسل، أو يبكي متألما بسبب الضرب، بعد أن تعود إلى البيت تتحول أنت أيضا إلى معلم يضرب الأصغر منك والحيوانات والحشرات والطيور والأعشاب والهواء، .. ولكنك تتعلم أيضا القراءة والكتابة والحساب،.. ودروسا أخرى.

ماذا فعل رجب؟ يتذكر عيسو .. لم يقابل رجب منذ خمسين عاما عندما ترك المدرسة، يسمع أنه ناجح في حياته، شخص يحبه الناس، ولديه عمل ودخل جيد، ويملك أراض وعقارات وأكثر من بيت وأكثر من سيارة، وسعيد، ويتحدث بتدفق، ويروي نكات، .. ويحبّ الحياة!!!

كان رجب يسبق عيسو بسنة، ثم لحق به وسبقه، وافترقا، لا يعرف عيسو كيف ولماذا يرسب التلاميذ في الصف الأول، .. سمعت أنه لم يعد يرسّب التلاميذ في الصفوف الأساسية، وهذا جيد، صحيح أن نسبة كبيرة من التلاميذ أنهوا الصف العاشر وهم غير قادرين على القراءة والكتابة،.. طيب! «لقد تعايشت (غصبا عني) مع جامعيين لا يميزون بين الكتب، لا يدركون أن ثمة فرق بين كتاب وكتاب آخر، كلها تبدو متشابه مثل ساندويشات الفلافل أو الكاسات المصفوفة في المحلات والمطاعم، هؤلاء الذين عرفتهم ناجحون في حياتهم، .. ناجحون فقط؟ لدى أحدهم بيت مساحة 2400 متر مربع، .. ومركون أمام البيت تسع سيارات وجرّافة!»

كان رجب ولدا طيبا، يشعر عيسو نحوه بالحزن، ويتمنى لو كان

يستطيع أن يجنبه الضرب والجلد الهمجي في المدرسة، .. وأدرك في ذلك السن (7 سنوات) ومازال يعتقد وباعتزاز أنه لا فائدة من ضرب رجب وأمثاله، وأنه يمكن الاقتناع بما يقدرون على تعلمه، ويقبل منهم ذلك، وبخاصة أنهم في غاية التهذيب والدماثة ولا يزعجون أحدا، العكس مصدر الإزعاج هو المعلم الساديّ بصراخه وتأففه، وانشغاله جلادا أكثر مما هو معلم، فيما بعد؛ يعني بعد أيام قليلة من دخول المدرسة، فهم عيسو أن الأستاذ يستمتع بالضرب والجلد، وصار بعد المدرسة يحمل عصا ويضرب الأعشاب وفي الهواء ويعذب الجنادب والحشرات منتظرا اليوم الذين يكون فيه معلما يجلد أولاد الناس! كان الأستاذ ينادي رجب ويدير وجهه إلى المقعد الأول «الرحلاية، كلمة جميلة مستمدة من راحلة»، والذي يجلس عليه أربعة تلاميذ (مصمم لاثنين فقط) ويطلب من الأولاد الجالسين في المقعد أن يمسكوا يديه، كل اثنين يمسكان بيد، وينزل ملابسه إلى أسفل ويضربه بعصا الرمان أو اللوز او الخروب (حسب المواسم والعرض والطلب) على مؤخرته العارية حتى لا يعود قادرا على الضرب،.. كان يلف العصا بمنديله الجميل الأنيق حتى لا تتأذى يده او يلوثها شيء!، الولد لم يكن يبكي فقط بل يتشنج وتظن أنه سوف يختنق ويموت، ويئن ويتألم على نحو يذيب الصخر ويقطع نياط قلوب الضباع والغربان،.. يا رجب يا ابن الحلال ادرس في البيت وخلّص نفسك من العذاب، يؤكد رجب أنه يمضي النهار والليل يدرس وأنه ينام حافظا دروسه، ولكنه عندما يرى المعلم في الصفّ ينهار وينسى كل شيء، ..

ولعله يفهم جيدا ويعرف مثل الأستاذ وربما أكثر، ففي الأماسي بعد المدرسة يكون رجب ولدا مرحا ذكيا لا يختلف عن أحد من رفاقه في شيء.

يجد الأستاذ أجمل فرصة في حياته عندما يصاب احد الأولاد بالرعب، فيواصل هوايته المتوحشة، هناك أولاد كثيرون لم يكونوا يحفظون دروسهم ولكنهم متماسكون وغير مرعوبين من الأستاذ ويتحملون العقوبة، يبكون قليلا ويحزنون ولكنهم يملكون القدر العادي والطبيعي من الصلابة، فيتركهم الأستاذ وينشغل عنهم وفي مرات كثيرة لا يعاقبهم، ولكنه يجلد رجب بمناسبة وغير مناسبة، ثلاث مرات في اليوم على الأقل، وأغرب ما في المشهد أن الأستاذ لم يكن يكتفي بتوبيخ رجب وبهدلته لأنه لا يعرف كم يساوي 6+9 ولكن لأنه وغد وسيء ووقح ويحمل كل الأوصاف القبيحة والسيئة، كان عيسو ومازال يتساءل ما العلاقة بين سوء الخلق وبين عدم معرفة مجموع الرقمين ستة وتسعة، ويضرب الولد بلا رحمة معتقدا أنه يحارب الصهيونية والاستعمار ومحور الشرّ، هل الأستاذ لا يعرف الفرق بين نقص المعرفة وأن تكون سيئا؟ لماذا يعتقد وهل يمكن أن يعتقد أحد أن رجب هو دراكولا وان الأستاذ يواجه ويعاقب مصاصي الدماء!!

ادعى عبيد يوما أن رجب سرق علبة ألوانه، .. وحلف رجب واستنكر مستغيثا، ولكن الأستاذ سلخه سلخا، وطرده من المدرسة حتى يحضر علبة ألوان لـ عبيد، وعاد إلى البيت واشترى علبة ألوان جديدة، أعطيت للولد المدعي، .. وقبل نهاية اليوم المدرسي وجد الأولاد علبة ألوان عبيد، وقعت منه تحت الرحلاية، ومع الزحام الشديد والتكدس على المقاعد لم

يكن ممكنا ملاحظة أنها سقطت؛ أو حتى محاولة البحث عنها، فربما لو سقط طفل تحت المقاعد سوف يضيع!.. لم يشعر المعلم أنه أخطأ، ولم يلاحظ أن رجب بريء وطيب، ولعله كان يتمنى لو يجلده مرة ثانية!

في يوم من الأيام جاء رجب حافظا درسه، قرأ سورة الزلزلة، إذا زلزلت الأرض زلزالها كاملة من غير خطأ، وفي ثقة كاملة، فرح عيسو كثيرا، وانتظر أن يحتفل المعلم بالحدث الجميل ويثني على رجب، .. ولكن ويا لسوء الحظ؛ فإن رجب لم يدغم النون في الياء في قوله تعالى «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» صار الأستاذ يقول «فميّ يمعل مثقال ذرة خيريّ يره» ورجب يكرر وراءه من غير ادغام، فيضربه بالعصا صارخا وَلَك ادغمها، ثم أخرجه من المقعد وانهال عليه بالضرب الكاسح الشامل، وعاد الانهيار والتشنج إلى رجب، صار يبكي بطريقة متشنجة ويستعطف الأستاذ وهذا يضربه في تهور وغضب، .. تساءل عيسو في تلك اللحظة لماذا لم يمررها الأستاذ لـرجب ويكتفي بأنه اليوم وعلى نحو استثنائي قرأ وحفظ جيدا، وليسامحه في الادغام!! اليوم وبعد بعد خمسين عاما يعتقد عيسو أنها ستكون هزيمة كبرى للأستاذ لو أن رجب لم يعد يصاب بالانهيار خوفا من الأستاذ، سوف يصاب الأستاذ بالاكتئاب والخسارة، كانت عقوبة رجب في ذلك اليوم أشد قسوة ووحشية من أي مرة سابقة، لا بدّ أن الاستاذ كان خائفا أن تفلت منه الفريسة!

بعد سنوات استمع عيسو الى الاستاذ نفسه يقرا القرآن واكتشف أنه لا يتقن التلاوة ولا يعرف من أحكام التلاوة والتجويد شيئا، ولا بد أن كل

ما يعرفه من أحكام التجويد هو ادغام النون في الياء في آية الزلزلة «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» وأنه لا يعرف ادغاما آخر، ولا يعلم أن الادغام يتحقق كلما اعقبت النون الساكنة ياء أو لام أو راء أو ميم، وليس فقط في تلك الآية من سورة الزلزلة.

ماذا فعلت بنا المدارس وماذا تعلمنا من كتب المدرسة؟ يتذكر عيسو كتاب العلوم، .. دروس عن الغذاء الجيد، وأفكار ونماذج لوجبات الفطور والغداء والعشاء... يجب أن يكون غذاؤكم جيدا وكافيا ومتوازنا.. يقول الكتاب لنا وكأننا مخطئون نمارس الغذاء غير الجيد .. هل كنا جناة لأننا لا نأكل سوى الخبز والشاي والزيت على الفطور والغداء والعشاء؟ .. وإذا ولدت البقرة حظينا باللبن غالبا وأحيانا كميات قليلة من الحليب والزبدة واللبن الرائب، طبعا في الفطور والغداء والعشاء، في الموسم الزراعي هناك بندورة وفول وكوسا.. لم يكن يزرع غيرها ولم يكن طعام سواها بالطبع، .. البطاطا شيء جميل يمكن أن تحظى به في المناسبات، والرز/ (الرز أم الأرز؟) طعام رائع بعيد المنال، في الأعراس ربما، وهي نادرة، .. وتقدم الطبيعة في الشتاء الخبيزة، يقبل الناس على طبخه والتهامه،.. والأبقار والأغنام والحمير أيضا، .. عالم من الخبيزة يملأ الأرض والفضاء والفضلات الآدمية والحيوانية.. أراد الأستاذ مرة أن يهوي على تلميذ بالعصا ولكن قبل أن يصل اليه كان الولد قد انهار وامتلأت ملابسه بالخراء... خبيزة خبيزة يلعن أمك، قال الأستاذ باحتقار واستهزاء.

كان أستاذ معجبا بقدرة عيسو على كتابة اية كلمة والقراءة في الكتب

والتذكر والإجابة واستظهار جميع الدروس والكتب والقصص .. لم يضربه قط برغم أنه كان يضرب بمناسبة وغير مناسبة على ظاهر الأيدي وظهرها وعلى الارجل والقفا بمتعة خيالية... لم يره منذ نهاية العام الدراسي، .. وبعد 40 سنة التقيا مصادفة عرفه على نفسه وأقبل عليه مرحبا.. لم يتذكره ولم يتذكر شيئا عنه، ولكنه أمضى وقت اللقاء يتحدث بلا توقف مستذكرا باستمتاع ونشوة قصص الضرب والجلد!! ليس في جوف ذلك المخلوق سوى ذكريات الجلد للأطفال... لا بد أنك حصلت مني على فلقات كثيرة قال ضاحكا مستعليا (من أين حصل على هذا الاستعلاء؟؟)

أيها الأطفال الأوغاد لم لا تأكلون على الافطار حمص وجبنة وحليب وفول وفلافل وحلويات وكيك وعسل ومربى؟ لم لا تأكلون في الغداء لحم وسمك ودجاج مع الرز؟ لم لا تأكلون الخضار والباميا والفاصوليا والبطاطا، لم لا تأكلون البرتقال والتفاح والموز والخوخ والتوت؟... يقول كتاب العلوم موبخا .. يسأل الاستاذ الطلاب ما الطعام المناسب للغداء؟ وما الفواكه التي يجب أكلها بعد الطعام؟ ويجيبونه كما في الكتاب تماما مثل ما يجيبون عن حدود الوطن العربي وأهم المدن التونسية والجذر التكعيبي للرقم 718...

يقول عيسو وكأنه يحدث صديقا يجلس بجانبه على التلة المشرفة على القرية «تعلمنا أيضا آداب المائدة، وعرفنا من غير أن يكون هناك أبدا موائد وطاولات ومقاعد كيف نجلس ونسكب الطعام في صحوننا الخاصة .. وألا نفعل مثل عوض الذي حاول أن يأخذ من الشوربة البعيدة عنه فمدّ

نفسه على الطاولة وسكب الخضار المطبوخة والزيت على جاكتيه»،.. إنه يلبس جاكيت، نعم لديه جاكيت.. لكن عيسو لم يلبس جاكيت حتى بلغ الثامنة عشر، اشترى واحدا بنصف دينار من سوق «البالة» ولم يطبق درس المائدة الا بعد خمس وعشرين سنة،.. لتهنأ أين ما كنت يا مؤلف كتاب العلوم، في قبرك كنت أو في هذه الحياة، فقد علمتنا ألا نسكب الطعام وألا نمدّ أجسامنا على الطاولة، طبعا لم نفعل مثل ذلك لأنه لم يكن هناك طاولة ولا طعام يسكب،.. هو صحن واحد نتحلّق جميعا حوله... هل كان يعلم اولئك الذين يرسمون كتب المناهج ويرسمون فيها عائلة تجلس حول طاولة وتتناول الطعام لمن يوجهون كتابهم، فلم يكن لدى أحد في آدوميا طاولة وكراسي للطعام...

بعد حصة العلوم بـ 25 سنة دعي عيسو الى الإفطار في بيت مسؤول سياسي كبير يشغل موقعا مهما يفوق بأضعاف قدراته النفسية والمعرفية، .. كان عنده طاولة وكراسي للطعام تشبه كثيرا اللوحة المرسومة في كتاب العلوم للصف الخامس، ووضع العامل الآسيوي في بيته أصنافا كثيرة مثل كتاب العلوم، .. كتاب التربية الإسلامية أيضا فيه صورة لعائلة تنتظر طعام الإفطار في رمضان؛ تجلس على مقاعد حول الطاولة أمامها أصناف كثيرة من الطعام، وكان التلاميذ ينشدون أيضا .. ماأحيلاها صلاة وما أحيلاه صيام، ويرددون مع الأستاذ الذي لم يكن صائما، كان يقرأ ويبدو فرحا بالصيام ويراه شيئا جميلا ورائعا.. في بيت ذلك الصحفي الكبير فعل عيسو كما تعلم في كتاب العلوم وكما يتذكر ما حفظه من الكتب

المدرسية، استعان بالمضيف ليضع له في صحنه طعاما قريبا منه وبعيدا عنه... حتى لا يسكب الزيت كما حصل مع عوض الذي أخبر عنه كتاب العلوم.. نظر غاضبا إلى عيسو وقال حظّ لحالك... ما لن يفهمه أحد (ربما) كيف أن ذلك وضع عيسو في مسار أثر على مصيره في الحياة.. وربما لو لم يتذكر كتاب العلوم في ذلك اليوم لكان شخصا آخر، .. لا يعرف عيسو الآن هل يشكر كتاب العلوم؟

التلاميذ الذين غامروا بالابتسام ظلت مغامراتهم قصة تروى على مدار العقود، ولم يكن للمصير الذي واجهوه علاقة بدرس «الولد الشجاع». جاء الولد، ووقف باسما أمام الطبيب.. وقال عنه الطبيب: هذا ولد شجاع. ظل عيسوا حائرا أمام كلمة «باسما»؛ لم يعرف معناها. كتاب القراءة الذي قرأه كله مرات عدة في أول يوم استلمه من المدرسة، كما قرأت كتب إخوانه الكبار في الإعدادية، وحفظ كثيرا من قصائدها وما زال يحفظها حتى اليوم؛ ومجلة العربي التي كان يقرأها خلسة مغامرا بما يمكن ان يتلقاه من عقاب.. كل ذلك لم يسعفه في معرفة معنى «باسما». كيف سيعرف كلمة غير مستخدمة؟ كم جلدة تلقى التلاميذ بسبب الابتسام؟ كم إهانة وشتيمة ظلت ملتصقة بهم لم تمحها السنوات الخمسون بسبب الابتسام؟ اليوم، ما يحيره ويدعوه إلى التوقف طويلا للتأمل والتفسير، كيف كان الأساتذة «يسلخون» التلاميذ بسبب الابتسام، ثم يقرأون لهم درس القراءة، ويشرحون لهم بصدق وإخلاص فائضين عن الولد الشجاع الباسم! هو الأستاذ نفسه لمح حسن يضحك، وكان الموقف يسمح

للأولاد بأن يتهامسوا ويبتسموا، فقد كان منشغلا عن التلاميذ ومكبا يقرأ أو يكتب شيئا (يظن عيسو أنه كان يعد خطته المنهجية: صفحات مسطرة طوليا وعموديا، تشرح الأهداف والوسائل للدروس، وما سيفعله الأستاذ لتحقيق الأهداف. قرأها كلها مرة في غفلة من الأستاذ). لكنه رفع رأسه فجأة ورأى حسن يضحك، «لماذا تضحك يا ابن الـ.. تعال هنا مشان أسلخ بدنك» هو لم يضحك، ولكنه ابتسم. كان هناك أولاد كثيرون وأساتذة أيضا اسمهم بسام وباسم، لكنه لم يعرف معناها، .. لعلها أشياء مثل فاكهة المانجا! ولما كبر عيسو صار بلا إدراك واضح يقوم بالإرهاب نفسه ضد من يقدر عليه كلما رآه يضحك، ويصرخ فيه بكل ما يقدر عليه من غضب: الضحك بدون سبب قلة أدب.

تنازل عيسو عن كبريائه وهمس سائلا الصديق الذي كان يجلس بجواره ما معنى باسما؟ قال له: ضاحكا. وازدادت حيرته؛ لماذا يشجعنا الكتاب على الابتسام؟ «حتى عندما كبرنا قليلا وقرأنا قصيدة إيليا أبو ماضي «ابتسم»، ومقالة أحمد أمين عن الابتسام والتفاؤل، بقيا (الابتسام والتفاؤل) ممارسات جرمية، نمارسها بالسرّ، ونضحي لأجلها بعقوبات يجب أن تكون رادعة».

وهناك قصة ليلى التي فتحت عينيها في الصباح ورأت خيوط الشمس الذهبية، تداهم عيسو المشاعر نفسها التي داهمته قبل خمسين سنة عندما قرأ الدرس، .. ليلى تفتح عينيها في الصباح وترى خيوط أشعة الشمس الذهبية والناس يذهبون ويروحون... وتقول لنفسها وأنا يجب علي أن

أذهب الى المدرسة، .. سأل نفسه ومازال يسأل أين تعيش ليلى واين يستيقظ الناس بهذا الهدوء ويطلون على الناس يروحون ويجيئون، ثم تقرر أنها يجب أن تذهب الى المدرسة أين وكيف يحدث هذا؟ لم يحدث مع عيسو مثل ذلك أبدا، .. والأطفال لباسهم الجميل الملون من أين يحصلون عليه.. لماذا لا يوجد لدينا مثله؟ اين يجد هؤلاء الأطفال ملابسهم وكيف يحصلون عليها؟ والطلاب الذين يسألون الأستاذ ويجيب عليهم بلطف.. في أي كوكب يحدث هذا.. الغريب أن المعلمين كانوا يقرأون الدرس ولا يلاحظون أبدا أنهم ليسوا كالأساتذة في كتاب القراءة وأن تلاميذهم ليسوا كالتلاميذ في الكتاب!

توم البليد وحده جاء يحفظ القصيدة لم يحفظها أحد وعندما جاء دوره ضحك التلاميذ لكنه ألقى القصيدة .. كيف يضحك التلاميذ؟ كيف ظلوا أحياء بعدما ضحكوا؟ الأستاذ يتحدث بلطف مع توم! يا إلهي.. الأستاذ علّم التلاميذ الدرس وهو يسلخ جلودهم، وقرأ لهما دروسا عن الحوار والاستماع بين التلاميذ والمعلم وهو يتصرف مثل إله شرير!؟ .. لم يكن شيء من حياة الناس في الكتاب يشبه حياتنا... ولكن ما يحير عيسو حتى اليوم هل كان الأساتذة يسألون أنفسهم أيضا!!

تعلمنا أيضا قواعد المرور في الشوارع برغم أنه لا يوجد شوارع ولا سيارات ولا إشارات ضوئية، لكننا سردنا للأستاذ القواعد بدقة وإتقان عن ممرات المشاة والاشارات والأرصفة .. ثم حين هجر القرية أهلها ولم يبق فيها احد سوى الحاج عبد الرحمن، مرت سيارة بالقرية واصطدمت

به، وكسرت ساقه، كيف وقع الحادث في قرية ليس فيها سوى شخص واحد، هل كان يسير في غير المكان المخصص لمشاة؟ أم أنه قطع الشارع وكانت إشارة المشاة حمراء؟

إلى المدرسة، .. يجيب الولد الأنيق الشجاع في كتاب القراءة على سؤال الرجل إلى أين انت ذاهب؟ وبعد حوار ليس طويلا يسأل الرجل وماذا تفعلون في أوقات الفراغ؟ الرجل يعرف أن هناك اوقات فراغ! ولكن عيسو لم يعرف عن وقت الفراغ، يقول الولد نخرج إلى الملعب فنلعب. . حوار شائك عصي على الفهم في الدرس الأول من كتاب القراءة، وهناك أيضا أطفال القرية الذين صاروا يلعبون في الحقول بعيدا عن الطريق. «الأطفال يلعبون».. صورة مدهشة لم يستوعبها عيسو، كيف يكون اللعب متقبلا وأمرا جيدا كما يبدو في الكتاب، ولكنه كان لدى المعلمين الذين يعلمون الدرس نفسه عملا بشعا، يتلقى الأطفال بسببه عقوبات قاسية! والأهل أيضا كانوا يعتبرونه جريمة!.. كيف كان الأستاذ يعلمهم الدرس الذي يثني على اللعب أو يتقبله، وهو يعاقبهم على الفعل نفسه؟ وبما أن عيسو كان يأخذ الكتاب بجدية، ويتلقى من المعلم بقبول، ويسمع لأهله باحترام؛ ولأن اللعب طبيعة فطرية كان يلعب ويشعر في الوقت نفسه بالخطيئة وتعذيب الضمير، ..ظل اللعب والضحك خطيئة يمارسها عندما ينسى أو يضعف أو يستدرج، ثم يحاسب نفسه عليها بقسوة! ويا للخسارة، فعندما اكتشف المعلمون والأهل، واكتشف عيسو أيضا أن اللعب والمرح شيء إيجابي وجميل، كان قد فات الأوان!

هناك شيء أغرب! في حصة الرياضة يلعب الأطفال؛ يصبح اللعب واجبا قاسيا مثل حصة الإملاء والعلوم، ويتعرض عيسو للتوبيخ لأنه في الملعب مثل «العمود»، لا يضر ولا ينفع. ولكنه تعلم فيها بعد، بسبب فشله في اللعب، درسا جميلا من أجمل ما تعلم في الحياة.

ففي المدينة التي كان يدرس فيها في الجامعة، كانت ممارسة كرة القدم فرض عين (تقريبا) في أيام العطل وفي الرحلات وفي الطلعات الى الشاطئ أو البرّ، .. كان يجلس وحده والشباب يلعبون، وفي إحدى المرات، انخرط الشباب جميعهم في لعب الكرة، وبقي عيسو وشادي ابن السنوات الأربع جالسين وحدهما يتحدثان، تعلم عيسو من شادي درسا مفيدا وجميلا يتذكره دائما. فقد بدأ النهار يرحل. كانت الشمس تغرق في البحر، والقمر يطلّ متسللا من وراء الجبال. سأل عيسو شادي: لماذا تغيب الشمس في الليل ويأتي القمر؟ قال: الشمس لا تسمح لها أمها بالبقاء حتى الليل، فتذهب إلى بيتها، والقمر تسمح له أمه بالخروج في الليل! وما يزال عيسو مدينا لشادي بهذا التفسير الجميل والعميق لحركة الكون والليل والنهار..

أَنِي والخوف أردنيان

في قصته «النمور في اليوم العاشر» يعرض زكريا تامر مسار حياة النمر من اليوم الأول عندما اصطيد واحضر إلى حديقة الحيوان، وحتى اليوم العاشر، وكيف تحول هذا الحيوان النبيل القوي المتكبر في خطوات سريعة متدرجة إلى مسخ يداري سيده المروض، ويفكر فيما يرضيه فيفعله، حتى لو كان مواء، أو نهيقا، أو قفزا مضحكا، وحتى أكل الأعشاب، ودون أن يطلب منه ذلك، فيستخدم هو ذكاءه، ومهاراته ليعرف ماذا يريد سيده، وفي اليوم العاشر رفعت أسوار الحديقة، فإذا النمر إنسان، وإذا الحديقة مدينة.

ولكن ماذا حدث في اليوم الحادي عشر؟

كائنات كثيرة تحولت في ذلك اليوم إلى بشر، وليس النمر وحده، ربما

جميع حيوانات الحديقة، وتعقدت المشاهد وتطورت المسارات في اليوم الحادي عشر، وتختلف الكائنات البشرية حسب أصولها وتتعدد، ذئاب، خيول وبغال وحمير وأبقار، أفاعي وعقارب، جعلان، غربان، خفافيش، بومة، قمل وبراغيث، بعوض وذباب، أسود ونمور وكلاب وقطط، وقرود وفئران، وديناصورات، .. وحمائم وصقور.

كيف يبدو التاريخ؟ وكيف تصنف الكائنات وهي تتجمع في أحزاب وجماعات وشلل ومجموعات، تتنافس، وتتعاون، وتعمل، وتختلس، وتفكر، وتستلقي على الرصيف، لو مضينا في كتابة التاريخ على هذا النحو؟

تناولت الكائنات روايات وقصص وكتابات كثيرة، من أشهرها بالطبع «كليلة ودمنة» لابن المقفع الذي قتله العباسيون ربما بسبب كتابه هذا الذي قدم فيه رؤى وفلسفة في الحكم والعلاقات، ورواية «مزرعة الحيوانات» لجورج أورويل التي عرضت أنظمة الحكم الشمولية في وصف رائع، وروايتي «نداء البراري» و«الذئب الأبيض» لجاك لندن التي عرضت على نحو يبدو واقعيا قصة كلب ضخم يعيش مدللا مرفها في قصر، ثم يسرق ليستخدم في جر الزحافات الجليدية، فتستيقظ فيه نوازع الغابة والتمرد ويعود إليه الذئب الأصلي الذي كان قبل عصور سحيقة، وينتقل إلى الغابة يقود الذئاب في عمليات صيد ومطاردة وانتقام، وربما كان جاك لندن يحدث نفسه بصوت مرتفع، فهذا الروائي المتمرد الذي عاش في الولايات المتحدة (1876ـ 1916) وكتب روايات رائعة وناجحة

وضرب في الأرض للصيد في المحيطات والبحث عن الذهب في الآسكا والمشاركة في الحروب كان يعيش حواراً وصراعاً ذاتيا مضنياً وطويلاً انتهى به إلى الانتحار وهو في سن الأربعين.

و«مسخ الكائنات»، عنوان لعمل يوناني ضخم يعد من أهم مصادر الثقافة والأدب اليوناني والروماني، يعرض قصة الحياة والآلهة والأبطال والقديسين والملوك والكهنة وصراعاتها وتحالفاتها وعبثها وأسرارها ونزواتها.

كان ثمة حمار على رصيف اليوم الحادي عشر، إنه فيلسوف ذكي، وان كان لا يتصرف غالبا حسب معرفته، ولا يدل سلوكه على فهمه، وفي بعض الأحيان يخونه ذكاؤه وتقديره، ويلتقي معه في حزب الحمير الحصان، العامل المجتهد بجد وإخلاص، ونبل وغباء، والجمل فيلسوف الجندية والتمرد.

أمضى الحمار شطرا من حياته يعمل ويحمل الجثث، ويحرث، ويتحمل الإهانة والطرد برضا وصبر، ويعمل كل ما يطلب منه بأمانة وإتقان، دون اعتراض حتى تلك الأعمال التافهة غير ذات الجدوى، من اللجان، والاجتماعات، والمؤتمرات، وأوراق العمل، والتخطيط، والإعلام، والانتخابات، وخدمة الجعلان التي تسللت بذكاء وعبقرية إلى القمة وحولت الكائنات والمؤسسات إلى ورش لإنتاج وتسويق الهراء والخراء.

وركن الحمار إلى الرصيف بعدما أرهقه النضال، والإعلام، والتخطيط، والانتخابات، والتوجيه والتثقيف، والحضور والانصراف، والسمع لمن

رأسه زبيبة أو رأسه حاوية زبالة، واكتشف في جوفه قدرا هائلا من الغثاء جعله يغرق في القيء.

قيل إنه طرد طردا من الإسطبل، ولم يركن إلى الرصيف بإرادته، فقد كان يعمل في إسطبل جميل بإخلاص وامتنان، وكان يفكر دائما كيف يكافئ صاحب الإسطبل النبيل حتى رآه يوما مع كلبه، وكان الكلب يقفز على كتفي صاحبه، ويقف على رجليه الخلفيتين ويحرك يديه مداعبا صاحبه، وهذا كان يغرق في الضحك، فحاول الحمار المسكين أن يفعل مثل الكلب ليدخل السرور على قلب صاحبه، ولكن صاحب الإسطبل غضب وطرد الحمار من الإسطبل، وهذه هي رواية الحصان عن صديقه الحمار.

وأما الغراب فيؤكد أن الحمار هو المسؤول عن انهيار محطة التنقية التي تصب فيها مجاري المدينة ثم تعالج ويعاود تكريرها واستخدامها، وكان الحمار يعمل في هذه المحطة، وكان يشارك في إدارتها، وهبت الروائح والمياه القذرة على المدينة، وغرق مهرجان للناس في المياه القذرة، وهم يعتقدون أن الحمار أطلق المياه الملوثة عليهم متعمداً، ولكن الحصان يقول إن الحمار لا علاقة له بالمحطة وأن مروره بالمكان ليلة الحادث كان مصادفة، وبما أن الغراب هو أقدر الكائنات على بث الأخبار والتحليلات، وتعتمده الفضائيات، والإنترنت، والإعلام، والإشاعات، وأحاديث الديوانيات، وثرثرات المجالس، ومحاضر الاجتماعات، فقد كانت روايته هي الأكثر رواجا وقبولا.

ولكن البوم الذي لا يستمع إليه إلا في مجالس ومحافل محددة (كلية

الأركان في بريطانيا وباكستان تتخذ من البوم شعارا لها، وكذلك بعض الجامعات ومراكز الدراسات في الغرب) يقدم رواية أخرى مختلفة، فقد كان الحمار يعمل في ضريح المدينة، وهو مبنى أقيم حيث يقال إن أحد الأولياء يرقد فيه، وهو الشيخ سالم، الذي يدين له بالفضل ويحبه جميع سكان المدينة، ويأتي لزيارته كثير من الناس من مختلف أنحاء الأقاليم، وصار الضريح مصدرا أساسيا لموارد المدينة تعتمد عليه البلدية، والمحلات التجارية، والسياحة، وارتبطت به حياة معظم الناس، وقامت عليه مؤسسات، وجمعيات ولجان، وشركات كثيرة لخدمته واستثمار زياراته، وهكذا ارتبطت بالضريح السياحة، والأعمال التطوعية، والمناصب الرسمية، والخطط، والمشاريع.

وكانت المدينة قبل بناء الضريح واكتشاف أهميته وقدسيته تعاني من مشكلة النفايات والتلوث، والروائح الكريهة، فزحفت إليها الجعلان، والتهمت الفضلات والنفايات، ولكنها في مقابل ذلك تحولت إلى سلطة متنفذة في المدينة، وفرضت الأتاوات، ثم إنها أقامت الضريح، واشتغلت بحراسته وخدمته، ولم يعد يعرف أحد عن قصة الجعلان الحقيقية، فهي اليوم سدنة الضريح وأعيان المدينة، ولم تعد تأكل النفايات إلا سرا في أقبية وسراديب لا يعرف عنها أحد إلا الحمار ونفر قليل من الكائنات.

عرف الحمار أن الشيخ سالم لم يمت كما تزعم الجعلان، وأنه حي يرزق، ويعمل في المدينة المجاورة، وأخبر أهل المدينة بالقصة، وعلم الشيخ سالم أيضا بقصة الضريح وغضب كثيرا لكنه لم يفعل شيئا فقد كانت الجعلان

قوة مؤثرة تصعب مواجهتها، وبخاصة أن الغراب أشاع في المدينة أن الشيخ سالم يدين بكل شئلحلاش قائد الجعلان، وأنه علمه كل شئ حتى الوضوء والصلاة، وأن سالم في الحقيقة ليس شيخا، وفضل أهل المدينة رواية الغراب، لأن تصديق رواية الحمار يعني انتهاء كل شئ بالنسبة لأهل المدينة، وحتى جماعة الحمير غضبوا من الحمار، فمعظم الحمير تعرف قصة الضريح، ولكن فلسفة العمل التي تلتزم بها الحمير هي العمل بصمت وإظهار الغباء، فليس الذكي سيد قومه، ولكن سيد قومه المتغابي، وليس كل ما يعرف يقال.

وشعرت الحمير بإحراج كبير، وأطلقت الجعلان روائح كريهة غطت المدينة، وغطت النفايات شوارع المدينة وساحاتها، وعجزت البلدية عن حل المشكلة.

وذات يوم هطلت أمطار غزيرة، وثلوج، وهبت على المدينة عواصف عطلت أعمال الناس، وأغلقت الشوارع، والمحلات التجارية، وطلبت الجعلان من السكان أن يخرجوا ويجمعوا لها الفضلات، فقد كادت تموت من الجوع، ولكن الكائنات كانت في حالة من الفزع والترقب، ولم تكن معنية بالجعلان أو خائفة منها، فهي في مصيبة أكبر مما يمكن أن تلحقها بها الجعلان، وماتت الجعلان من الجوع والبرد، وأخذت السيول الضريح وجرفته بعيدا، وبحثت الكائنات عن الحمار، لكنه كان قد عاد إلى اليوم العاشر.

وكان الذئب ملهم الصعلوك الشهير «الشنفرى» فهذا الرجل الشجاع

الممتلئ عزة وأنفة عندما شعر بالإهانة خرج هائما في الصحراء يعيش حياة نادرة وفريدة خلدها في قصيدته الرائعة «لامية العرب» والتي ما زالت تتداول حتى اليوم برغم صعوبتها وطولها (68 بيتا) وكانت سيرته تشبه الذئب في كل شئ تقريبا، القتل والخوف والوحدة والصبر على الجوع والوحشة.

لقد وجد الشنفرى أن الأرض واسعة فيها منأى للكريم عن الأذى، وقبل أن يسف ترب الأرض وأديمها حتى لا يكون لأحد فضل عليه، وهو يصبر على الجوع حتى يموت الجوع فيه وينساه، ولولا اجتناب المهانة والمذمة لكان لديه أفضل أكل وملبس، هكذا يتحدث الشنفرى في لاميّته الرائعة، ثم يصف صبره على الجوع والوحدة وقسوة الحياة بالذئب، ويصوره في أبيات جميلة ودقيقة تجعلك تشعر أنه ذئب بالفعل وأنه خبر حياة الذئاب، فهو (الشنفرى) يدبر أمره كالذئب بأكل قليل زهيد، حتى يبدو من شدة الجوع نحيفا كالحا يكاد يختفي فمه في وجهه كأنه شق في عصا ويسير خائفا بين الشعب والصخور تكاد الرياح تطيره بسب نحافته، وحين يستنجد بأخوته الذئاب وتأتيه استجابة لندائه العميق القوي يجدها مثله تكابد الجوع فتنوح جميعها بصوت واحد ثم تتفرق ولسان حالها «وللصبر إن لم ينفع الشكوى أجمل» ثم يتحدث عن همومه بأسى حتى إننا نشفق عليه منها بعد أكثر من ألف وخمسمائة سنة، وتأسره جناياته ويطارده أصحابها فإنهم لا ينامون، ولا تنام الجنايات والكوابيس والذنوب، حتى إنه ألف هذه الهموم التي تعوده كما الحمى أو هي أثقل، ويحاول أن يبعدها

عنه بشتى الوسائل فتأتيه من تحيت أو عل، فيلجأ إلى الذئب مرة أخرى مستدعيا كل إمكاناته في الصبر

«فإني لمولى الصبر أجتاب بزه على مثل قلب السمع (الذئب) والحزم أفعل»

وفي سيرته في الإخوان المسلمين كتب حسن العشماوي أجمل الروايات وأبلغها أثرا «الهارب» التي يصف فيها سنوات هربه من حكم عليه بالإعدام وهي قصة حقيقية عاشها المؤلف بنفسه، ويذكر فيها أن رجلا أخفاه في منطقة صحراوية نائية وكان يعلمه مبادئ الحياة والتمرد والتخفي مستلهما الذئب ويذكره دائما بهذا الكائن العبقري «لقد اخترت أن تكون مثل الذئب» يقول له إن عمل شيئا ينافي الحذر، مثل إشعال النار في ليالي البرد الصحراوية يقول له مذكرا ولكن الذئب لا يفعل ذلك.

الذئب يمثل تيارا رئيسا، وقد ألهم شعوبا وأشخاصا كثيرين، فالشيشان يعتبرونه شعارا لهم ومن الواضح أن ثمة علاقة مهمة بين الشيشان والذئب، فهذا الشعب أمضى تاريخه في الحروب والمقاومة بلا كلل أو ملل حتى يبدو أن أعداده تتناقص بدلا من أن تزيد، ويعتقد أحد قادة الشيشان (الشيخ عبد الباقي جمو) أنه لو كانت حياة الشيشان مثل بقية الشعوب الأخرى في سلام ودعة لكان عددهم يزيد على المائة مليون.

والقرود أيضا لها سلوك وثقافة يمكن اقتباسها في التيارات والتجمعات السياسية والفكرية، تقول قصة إن أهل مزرعة اعتادوا أن يضعوا أمام أحد القرود كيسين، أحدهما كبير ويحتوى على حبة موز واحدة، والثاني صغير

ويحتوى على قطف من الموز، فيركض القرد ويختطف الكيس الكبير، ويستخرج حبة الموز ويتناولها سعيدا، وكانت اللعبة تتكرر كل يوم دون أن يغير القرد رأيه، وذات يوم نصح الحمار القرد قائلا: يا غبي!، هؤلاء الناس يضحكون عليك، وأوضح له حقيقة الأمر، فقال القرد: إنني أعلم ما تقوله تماما، ولكني لو أخذت الكيس الصغير لانتهت اللعبة، وتوقف الناس عن تقديم الموز.

فالقرد يعلم أن الناس يريدون التسلية والضحك، وهو يتصرف على النحو الذي يسعدهم، ويتيح لهم فرصة التذاكي والاستعلاء، ويحصل أيضا على حبة موز.

وربما يكون هذا السلوك هو المؤسس لكثير من المصالح العامة والخاصة والفضائل أيضا، فهو ليس سيئا كما يبدو للوهلة الأولى، فالعلاقات والمصالح والمشروعات والإنجازات قد تتعرض للانهيار لو كان العمل كله فيها يتم على الشفافية، فلا بد من قدر من الفساد لحماية الإصلاح، ويقال دائما «الكذب ملح الرجال».

لنتخيل مثلا لو أننا صدقنا أن الحكومات والجماعات تضحك علينا، وأن ما في القدر مما يقال إنه «مركزية القضية الفلسطينية» و«المشاركة في الحكم في الأنظمة الجاهلية» و«مواجهة الوطن البديل» و«مواجهة تصفية القضية الفلسطينية» وفتاوى وأحكام وأقوال وتصريحات وخطب واحتفالات وتظاهرات واعتصامات وبيانات واجتماعات وانتخابات ومجالس تنسيقية وأخرى شورية وهيئات إدارية وعمومية والتنمية

السياسية والبيانات الوزارية ومكافحة الفساد والتطوير الإداري والمالي ليس إلا طبخة من الحجارة التي كلما اقترب موعد تقديمها تحولت إلى طبخة جديدة علينا انتظارها.

هذا الانتظار والجدل حول الأوهام مفيد جدا، فهو يحقق قدرا من الوحدة والأفكار الجامعة للناس، نتجادل حولها في الصحف والمجالس، وتلتقي الطبقات السياسية والنخب الأنيقة في الفنادق الأسطورية، وتعقد المؤتمرات الصحفية، وينشغل بها المراسلون الصحفيون والكتاب، ويعلق عليها القادة والنواب والأعيان، ويتسلى الجمهور في البيوت والمقاهي والأرصفة، كم ستكون حياتنا قاسية ومملة بدون الجدال بين الصقور والحمائم والأجندة الوطنية والتنمية السياسية وغيرها من الفواكه اللذيذة التي تغلبت في حياتنا على القمح والبطيخ الذي تبين أنه موبوء يصيب بالتسمم الغذائي، ولكن أحدا لم يشكو من إصابته بسبب التحولات الاقتصادية والاجتماعية أو اقتصاد المعرفة أو الإصلاح السياسي، والتي ثبت أنها جميعها تصلح للاستهلاك البشري، وإذا لم تفد فهي ليست ضارة على الأقل.

ماذا سيحدث من كوارث وخسائر لو اكتشفنا مثلا أن ضحايا العنف والتطرف لم يزد على الشخص الواحد في عشر سنوات، وأنه في أثناء هذه الفترة قتل على الأقل عشرة آلاف مواطن في حوادث المرور، ووقع أكثر من نصف مليون حادث مروري، وأصيب أكثر من مائة ألف مواطن، عدا الخسائر المالية في العربات المتضررة والوقت المهدور والجاهات والصلحات والمناسف وزيارات المستشفيات.

ستحدث كارثة شاملة لو تحولنا إلى حروب الشوارع الحقيقية التي تجري في بلادنا وأدرنا ظهورنا للتحديات العظيمة التي تشغلنا، ستخسر الفنادق ولا يأتي إليها المغامرون الصحفيون الذين يأتون لإعداد تحقيقات صحفية مثيرة عن جماعات العنف والتطرف، وتنهار صناعات واستثمارات قائمة على القصص الإعلامية الممتعة والمثيرة والتي تؤوي صحفيين ومراسلين لا يكادون يقرأون أو يكتبون ومعاونين ومؤلفي قصص وكتب وروايات ومسلسلات تلفزيونية، ويكون علينا الدخول في عمل قاسي وممل ومكلف للتصدي لمعالجة الأسباب والاختلالات العميقة في الثقافة والسلوك في قيادة العربات وفي إدارة وتنظيم المرور، وتصميم الطرق والجسور، ومراقبة السلامة في ترخيص المركبات، وصياغة المناهج الدراسية، ومراجعة استراتيجية لفلسفة وسياسات العقوبات والمخالفات المرورية التي تكاد تتحول إلى كمائن للجباية، وصراع خفي بين الحكومة والمواطنين أكثر مما هي عملية مرورية تنظيمية وتثقيفية وإصلاحية.

ماذا سيحدث لو اكتشفنا أن الخبز يأتي من القمح الذي يجب أن يزرع في السهول والبوادي المحيطة بنا، ولا يزرع أبدا في البورصة، وأن الماء يأتي من السماء وينزل إلى الأرض، ويحتاج إلى إدارة حازمة للسيول والآبار والبرك والسدود تحميها من التلوث والهدر والنزف، وأن الفواكه ليس مصدرها السوبرماركت، وأن المجلس الأعلى للزراعة لم ينعقد منذ سبع سنوات.

ستتوقف المؤتمرات العلمية ومراكز الدراسات والاستشارات

العلمية والرحلات والبعثات حول العالم، وتتضرر الاستثمارات الأجنبية والوطنية أيضا، وتلغى كثير من الوظائف والمناصب، ويكون علينا العودة إلى مشروعات بدائية وأعمال بسيطة لا قيمة لها، ولا تحتاج إلى كثير من الخبرات والشهادات والتخصصات العلمية الدقيقة لأننا سنكون مشغولين في قضايا مثل السكن والطعام واللباس والتعليم والرعاية الصحية والاجتماعية والانتماء والمشاركة مما يمكن أن يقوم به الناس وينظمون أنفسهم على أساسه ويوظفون الحكم المحلي في اتجاهه، وتصبح هذه الفئة الواسعة من الياقات البيضاء من مديرين ومستشارين وخبراء وسكرتيرات ومكاتب وحواسيب وشبكات للمعلوماتية والاتصالات زائدة عن الحاجة وينادى عليها في البسطات مثل «يا ورد مين يشتريك»، ويضطر كثير من الناس على الرحيل عن عمان ليقيموا حول مصادر الرزق الجديدة.

ماذا سيحدث لو أن كل مواطن سأل نفسه عن أهمية عمله، وما يمكن أن يحدث للناس والمجتمعات والبلاد لو أنه توقف عن العمل؟ وما العلاقة بين عمله وبين صحة الناس ونهضة المجتمعات والبلاد وتنميتها؟ ستزيد البطالة إلى نسب مرعبة، وتجوع أسر، وتغلق مدارس خاصة، وتتحول المولات العملاقة الأنيقة إلى أماكن مهجورة، ويتراجع استهلاك الطاقة، ويتضرر النمو الاقتصادي والدخل القومي والناتج المحلي.

***

فدعوس ليس فقط ذلك الطفل (لا بد أنه كبر ومات) الذي تذكره

والده ـ وهو أحد مشايخ بني صخر، عندما كان في أحد مجالس والي الدولة العثمانية في دمشق، ورأى لهفة الوالي على طفله الصغير، عندما أحضره الخدم إلى مجلس الوالي، فخشي عليه من الهواء البارد أن يتسرب من تحت أظافره.

فتنهد الشيخ الصخري وقال: يا ولدي عليك يا فدعوس، إنه لا يجد تحت بيوت الشعر أو في الصحراء ما يستر نصفه الأسفل حتى يتجاوز الخامسة، ولا يلبس حذاءً حتى يكون قادراً على رعي الغنم.

حكاية «فدعوس» تبدو كل يوم في صيغ شتى، كأنها أحداث يومية تعيد تأوهات ذلك الشيخ دائماً «يا ولدي عليك يا فدعوس» حتى عندما يصير فدعوس وزيراً أو متنفذاً يبطش بالفداعيس، ويستولي على أراضي الدولة، ويحفر فيها الآبار، ويسخر إمكانات الدولة لمزرعته وبيته.. تحضر آهة ذلك الشيخ الثاقبة الذكية والمعبرة عن فراسة ابن البلد.

ربما يكون ذاك الذي كتب قصة «شاهد ما شافش حاجة» التي مثلها عادل إمام يوماً ما اطلع على حال فدعوس المقهور الذي يخاف من كل شيء.. ويؤدي واجباته، وحتى ما لا يطلب منه، فيسدد فاتورة التلفون برغم أنه لا يملك تلفوناً في بيته، (يقول ديوان المحاسبة أن الحكومة قدرت أنها ستحصل مليار دينار من الضرائب ولكنها حصلت 1.6 مليار دينار، مخالفة كل قواعد التاريخ والجغرافيا حيث يكون التحصيل الفعلي للضرائب أقل كثيراً مما هو مقدر ابتداءً)

يكد «فدعوس» في حقله أو وظيفته ويدرس أبناءه وبناته الاثني عشر

في الجامعات، كلهم بلا استثناء دون تمييز بين شاب أو فتاة، حتى عندما حرموا من البعثات الدراسية برغم أنهم من أوائل محافظتهم.. حتى في عهد «الديمقراطية» يحرم فدعوس الحاصل على معدل 95 ٪ في الثانوية العامة من البعثة الدراسية.

ويكظم فدعوس غيظه ويخزي الشيطان، فهو لا يحب أن يتسرب الحقد إلى نفسه أو أبنائه، أو حتى والديه الشيخين الكبيرين، يبلغ والد فدعوس من العمر مائة وثلاثة أعوام، ومع ذلك دعي للتحقيق عندما طلب تجديد جواز سفره ليؤدي العمرة، وسئل عن نشاطاته التنظيمية، وموقعه الحزبي، هل كان هذا الفدعوس ينظم الخلايا الحزبية من الرعاة والحصادين في «الصفر» ووادي أبو الغيلان، وبخاصة أنهم شوهدوا أكثر من مرة يتجمعون على الغداء بعد ساعات طويلة من الحصيدة؟

ويحرم فدعوس من بعثة لإتمام دراسته العليا بعد إتمامه الماجستير، وحصوله على الترتيب الأول بين 189 متنافساً للحصول على بعثة الدكتوراه، ولكنه يواصل دراسته على نفقته الخاصة ويحرز الدكتوراه من الجامعة الأردنية، ولكن الجامعة ترفض توظيفه برغم حاجتها لتخصصه، وبرغم أنها وظفت زملاء له لم يقبلوا في برنامج الجامعة الأردنية فسافروا إلى تونس أو السودان أو «ترمس عيا» وجاءوا بدكتوراه.. حتى الجامعات الأهلية ترفض «فدعوس» برغم تقديرها لكفاءته ومستواه لأنها (الجامعات الأهلية) تتطوع من تلقاء نفسها شأن «فدعوس» دائماً وتستشير الجهات المعنية.

قرية «فدعوس» شأن كل القرى المنسية في الوطن، والمعزولة في الجبال والأودية، تتكوم بيوتها بائسة مثل مريض يحتضر، لا يعرف عنها أحد، ولم يصلها سوى أجهزة «التلفزيون والموبايل» وسوء التغذية، و«الجهات المعنية» وربما لو لم يفتح لها طريق في عهد المرحوم وصفي التل لتأخرت عشرين سنة بلا طريق، في هذه القرية جمع الأهالي ستمائة دينار وبنوا غرفة بجانب المسجد الذي بنوه قبل ستين سنة على نفقتهم أيضاً، أسموها «دار القرآن» كانت تحفظ القرآن لأبناء القرية، ثم تحولت منذ خمسة عشر عاماً إلى مصلى للنساء، وبرغم ذلك فإن هذه الدار (دار القرآن) مثل لعنة تلاحق كل أجيال القرية فيتهمون بأنهم أعضاء فيها، ويقسم الأولاد أنه لا يوجد في القرية دار قرآن، وتؤكد الجهات المعنية أن معلوماتها تقول أنه يوجد داران للقرآن وليس داراً واحدة.

الداران غير الموجودتين إلا على الورق وكشوف رواتب وزارة الأوقاف حيث تصرف للقائمين عليهما مكافأة إضافية، ربما لو صدق أصحابنا في الجهات المعينة أنهما غير موجودتين لربما أراحوا أنفسهم من جهد وعناء كبير يمكن أن يعوض فقر الدم وقصر النظر الذي يعاني منه أبناء القرية بسبب سوء التغذية، ..

فرح فدعوس كثيراً عندما علم أن أجهزة الهاتف يمكن أن تكون مراقبة، فستتأكد الجهات المعنية أنه مواطن صالح يمشي الحيط الحيط ويدعو بالستيرة وسيتأكدون من استمرار تواجده في البيت منذ عودته إلى عمله وأنه ينام قبل العاشرة مساءً، وأحياناً يقتحمه النعاس وينام بمجرد

انتهاء نشرة الثامنة، ولولا اللياقة وضرورات المجاملة لانسحب إلى فراشه قبل الثامنة والنصف لكنه يخشى أن تعتب عليه الحكومة لأنه يقاطع نشرة الأخبار.

وعندما صار الناس كلهم يشتمون الحكومة ويلعبون «معارضة» ظل فدعوس عاقلاً معتدلاً، يسمع ويطيع لكل الرؤساء والمسؤولين التنظيميين الذين رؤوسهم «زبيبة» والذين رؤوسهم «معفنة» حتى رئيسه الذي تخرج بعده بستة أعوام والذي لا يكاد يقدر على كتابة جملة مفيدة!

ومرة استعار فدعوس سيارة أخيه ودخل بها في شارع باتجاه واحد فقابلته سيارة أودي زرقاء تسير عكس اتجاه السير، فانسحب فدعوس بسيارته إلى الوراء مذعوراً ليفسح المجال للسيارة «المخالفة» وتبسم لسائقها وأشار له بيده محيياً... ثم واصل طريقه مرتاح الضمير.

لكنه تذكر القصة مرة أخرى، وأعاد في الحادثة النظر فربما أساء إلى الحكومة أو عمل شيئاً خطأ، ولم يتذكر غير هذه الحادثة يمكن أن يكون أساء فيها إلى أمن البلد، وذلك عندما منع من المشاركة في ندوة عقدت حول مدينة «عمان: واقع وطموح» وماذا يمكن أن يكون من خطر يترتب على مشاركته في هذه الندوة التي ستتحدث عن الزحام ومشكلة التلوث والجمال العمراني لمدينة عمان.. ولا يحزن فدعوس اليوم سوى أنهحرم من فرصة علاقة طيبة مع «عمان» التي يحس أنها بعيدة عنه وبعيد عنها ولا ينتمي إليها، وأنها لم تعد للفداعيس أمثاله منذ توقفت جمالهم عن الرعي في جبل اللويبدة، ولم تعد أغنامهم تجد فرصة للشرب من سيلها الذي

كان يوماً نهراً عظيماً كما قيل في «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» أو من عيونها التي يؤكد كبار السن أنها كانت موجودة تحت شوارعها وأبراجها ومجمعاتها التجارية..

توقظ فدعوس كوابيس يومية.. وقد اكتشف أنها جميعاً كاذبة خائبة، سواء الجرس الذي قرع بيته الساعة الحادية عشرة ليلا فأيقظه من النوم، فلبس ملابسه كاملة وودع أهله، وهرع إلى الباب يلتمس أنفاسه المبعثرة بتذكر آية الكرسي، وتبين أنه الجار يسأل إن كانت المياه قد جاءت إلى خزانه أو لم تجيء، واعتذر الجار عن إزعاجه وأنه لم يكن يعلم أن أحداً ينام قبل الواحدة صباحاً فهو (الجار) يسهر حتى الصباح يلاحق بالريموت كونترول قنوات التلفزيونية التي يقدمها له الساتلايت، فدعوس لا يعرف اسم جاره برغم أنهما يقيمان في عمارة واحدة منذ سنوات، ولا يعرف عنه سوى أنه عاد من الكويت عام 1990، ولم يتحدثا قبل هذه المرة سوى مرة واحدة عندما اقترح عليه جاره أن يسعى لدى سلطة المياه لتربط العمارة بخط المياه الجديد الذي لا يتوقف ضخ الماء فيه ولكن السلطة لم تربط جميع البيوت به، وقد استنتج الجار من اسم عائلة فدعوس أنه لا بد أن يكون متنفذاً أو «واصل»، العائدون من الخليج يعتقدون ويصعب إقناعهم بغير ذلك أن الأردني من شرق النهر هو تلقائيا متنفذ، مثل أي مواطن خليجي في بلده، ويقال إن خليجيا في الولايات المتحدة اختلف مع أمريكي، فقال له محتجا يا بوي أنا مواطن!

ولكن كلمة مواطن في الأردن تذكر على سبيل الاستضعاف

والاستغلال ودفع الضرائب دون التمتع بصفة «دافع الضرائب» التي تستخدم في الغرب، دعيت مرة إلى حفل عرس وعندما وصلت إلى مكان الحفل وكان مقسما بشكل غير مقصود ولكن بسبب الزحام فناداني أحد الأصدقاء تعال هنا مع المواطنين ويعني الصديق المكان الأقل حفاوة واحتراما، وفي مرة أخرى جئت بالمصادفة في مكان أفضل فقال لي صديق لماذا لا تجلس مع المواطنين؟ الكبرة لله يا أخي!

وسبب الرعب الذي يصيب فدعوس من أجراس الليل بالإضافة إلى القصص والحكايات التي قرأها عما يصيب الناس في دول عربية كثيرة (زوار الفجر) أن جرس بيته قرع مرة الساعة الحادية عشر ليلاً قبل وصول كلينتون إلى عمان بليلة واحدة، فذهب فدعوس وفتح الباب آمناً مطمئناً، فوجد رجلاً بلباس مدني وقال إنه من «الأمن» ويريده أن ينزل إلى السيارة لمدة خمس دقائق ومعه دفتر العائلة.

فرجع فدعوس إلى غرفته وبدل ملابسه وودع أهله، واستحضر كل قصص الصالحين «وفقه المحنة والابتلاء» وردد في سره ما استطاع أن يستجمعه من القرآن الكريم.. وصدق فدعوس في تلك اللحظة قصة سمعها من أحد الشيوخ (صار هذا الشيخ وزيراً للأوقاف) أن عمر رضي الله عنه كان يقرأ القرآن في طرفة عين ثلاثين ألف مرة، فقد وجد فدعوس أنه قرأ القرآن كله في لحظة واحدة.

ولكن الله سلم، فقد كان رجال الأمن يجمعون معلومات تفصيلية عن سكان الحي لأنه (الحي) في منطقة مهمة سيمر منها كلينتون أو (يا ربي

تعيني على الصدق) سيلقي فيها خطابه الشهير وقد اعتذروا له بأدب جم وسألوه عن أشخاص يشتركون معه باسم العائلة عرف بعضهم ولم يسمع ببعضهم الآخر من قبل لكنه قال إنه يعرفهم جميعاً وإنهم أبناء عمه.

وفي مرة كان فدعوس يزور مكتب ارتباط «جامعة غزة» ليزور صديقاً له كان يعمل هناك (سافر فيما بعد، ولا يعرف فدعوس في مكتب جامعة غزة أحداً منذ عام 1986) وعرفه صديقه على أستاذ غزاوي يدرس في الجامعة وقد جاء إلى عمان ليسافر بعد يومين إلى الإمارات.

وعرف الأستاذ أن فدعوس فصل من وظيفته، وحجز جواز سفره، فتطوع الأستاذ أن يكلم عنه أحد الشباب من عائلة «المومني» درسه في الجامعة قبل سنتين عندما كان أستاذاً زائراً في الجامعة الأردنية، وكانت الصدفة الساخرة أن هذا «المومني» هو صهر فدعوس .. وكانت عملية شاقة عسيرة أن تفهم هذا الأستاذ كما كانت محاولات سابقة لإفهام آخرين وبخاصة من المقيمين في «الخليج» أو الذين عادوا بعد إقامة طويلة أن المسألة معقدة جداً.. ولعلها أعقد من اللوغارتيمات والجذر التكعيبي أو الجذر التربيعي ل (– 1) .. وأن فدعوس نفسه غير قادر على تحليلها، برغم أنه كان متفوقاً في الرياضيات والفيزياء وأن الأستاذ تنبأ له بمستقبل زاهر.

الحكومة منذ قيام الدولة لحديثة وهي تستدرجه ليكون ضدها وليعمل متطرفاً ويكون معارضة، وتواصل ما كانت تفعله الدولة العثمانية برغم العداء بين الدولتين، وهو منذ ما قبل التاريخ في هذا المكان يحاول أن يقنع جميع السلطات المتعاقبة أنه لا هم له سوى أن يستطيع أن يبني غرفتين

أمامهما «حظير» في جهة الشمال، ولكنه في كل مشكلة أو معركة يجد نفسه متهما من كل طرف بأنه مع الطرف الآخر.

كان «غلوب باشا» متأكداً أن «فدعوس» مشارك في ثورة 1936 وأنه يعمل في «الرعي» والفلاحة ليغطي على نشاطه الثوري.. ومأمور التسوية صدق عام 1935 ما قاله عنه «المختار» أنه باع أرضه التي يزرعها طوال عمره، ويتذكر أن والده وأجداده كانوا يزرعونها، ويقال له أيضا أنه باع وأهل بلدته أكثر من ثلاثين ألف دونم في وادي الأردن عام 1908 وبحدود ما يتذكره ويعرفه جميع الناس أن أحداً لم يعرض الشراء ابتداءً، ولم يطرح هذا الموضوع للتداول مع أحد، ولم يسع من قبل أن أحداً يشتري أو يبيع أرضاً، ونزع القاضي ملكية الأرض منه كما نزعت ملكية أراض شاسعة أخرى من قبل يقول فدعوس أن الدولة العثمانية أقطعتها لعائلته منذ مئات السنين وأنه يعيش على هذه الأرض قبل العثمانيين والعباسيين والأمويين، والرومان والفرس، وأنه يملك وثائق ملكية الأرض من السلطات والدوائر التركية وهو يحتفظ بها ومدونة باللغة التركية واللغة العربية.

في الخمسينات والستينات اضطهد فدعوس لأنه ناصري وشيوعي وبعثي، وفي الثمانينات اضطهد لأنه من الإخوان المسلمين، وفي أحداث «السبعين» اتهم من الطرفين بأنه يعمل مع الآخر، فلا شفع له عند الحكومة عشرات أقاربه «الشهداء» ومئات الموظفين والعسكر، ولا برأه عند «الآخر» أنه مضطهد ومحروم.

يتيه فدعوس خارج البلاد هائماً على وجهه، يلطع في مطارات العالم، ويتسكع منتظراً في أرصفة البلاد منتظراً بلهفة خبراً من أهله أنه يمكنه العودة، ولسوء حظه يقال له يمكنك العودة.. فقد جاء إلى البلد كل الناس حتى جورج حبش ونايف حواتمة، بل تبين أن كارلوس كان يعيش في عمان فيتخلى عن عمله المغري في الخليج والذي حصل عليه قبل خمسة أيام فقط بعد انتظار وشحططة وتشرد استمر سنة واحد عشر شهراً..

ويهرع إلى بلاده التي طلبت أهلها، ويدفع بدل خدمة علم ستة آلاف دولار ويبحث عن موقع أي موقع يخدم بلده، ويسأل فدعوس نفسه لماذا يشعر بالخوف؟ لماذا أمضى أكثر من عشر سنوات خائفاً يترقب، وهو لم يفعل شيئاً، وترك بلده ليدرس منذ كان في الثامنة عشر وعاد اليوم وهو ابن ثلاثين سنة، وكل الناس يكدحون ويجيئون آمنين مطمئنين.

حتى ابنه الصغير اكتشف رعبه وجبنه فيصرخ في وجهه كلما غضب «سأصير شرطياً وأضعك في السجن» كيف عرف الطفل هذا السر العظيم برغم أنه لم يتجاوز الرابعة من عمره؟

قال له: ولكنك لا تستطيع أن تسجنني دون أن أقترف خطأ يستحق السجن، وبالطبع فقد كانت مقولة سخيفة لم يصدقها الطفل الصغير، ولا يصدقها أحد في وطننا العربي الفسيح، فمفهوم الشرطي في عقلنا الباطن أنه يحق له فعل كل شيء دون اعتراض، يروي أحد الصحفيين أنه رأى شرطياً يضرب رجلاً لأنه ضرب رجلاً آخر ويقول له باستنكار: لماذا تضرب الرجل، أنت حكومة؟

***

لماذا تخاف ابنتي الصغيرة من الشرطي وتمسكت بي مذعورة عندما رأت شرطياً يمر بالقرب منا، وأتذكر أنني أخاف من الشرطة منذ وعيت على الحياة برغم أن تجربتي طوال حياتي يفترض أنها تجعلني أطمئن إلى الأمن، فأنا لم أزر مركزاً للأمن طوال حياتي إلا على سبيل زيارة أقارب أو أصدقاء يعملون في الشرطة، وأعيش في بيئة يعمل قطاع كبير من أبنائها في الجيش والأمن.

يسألني الشرطي الشاب في المطار أنت من الغرايبة؟ ولكني لا أعرفك؟ لماذا لم أستنتج أنه أيضاً من عائلتي إلا بعد نصف ساعة عندما أخذت جواز سفري وحقائبي وخرجت من حاجز الجمرك، كل ذلك تم بيسر ودون إعاقة وبمستوى أفضل بكثير مما يحدث لي في أوروبا أو أمريكا، عندما ناولني جواز السفر هممت أن أسأله هل أنت متأكد أنه يمكنني أن أمضي إلى البيت، وبعد أن تأكدت أنني أصبحت خارج دائرة الخطر ووقفت في المطار أنتظر سيارة تاكسي واستعاد عقلي عمله الطبيعي استقبل في تلك اللحظة فقط سؤال الشرطي لي، فقد كنت طوال الفترة التي تبدأ من الوقوف أمام الشرطي وحتى خروجي من المطار في حالة ذهول تام لا أعي شيئاً، وسألت في البيت إخواني هل تعرفون شرطياً يعمل في المطار، قالوا لي إنه فلان من أبناء عمومتك، وقال لهم عندما سألوه لقد حاولت أن أساعده لكنه يبدو غير محتاج لمساعدتي حتى أنه لم يكن يرغب في الحديث إلي! .. كيف يمكن إفهامه أنني لم أكن أسمع شيئاً من شدة الخوف!

كانت إحدى المرات استثناء، فقد أخذ الشرطي جواز سفري إلى غرفة

خلفية، ثم ظهر شاب بلباس مدني ودعاني إلى الدخول لم ينطق بكلمة واحدة، ولكنه فتشني تفتيشاً دقيقاً وأخذ كل شيء وجده معي ووضعه في مغلف، ثم أخذ حقائبي وفتشها تفتيشاً دقيقاً، ثم طلب مني أن أنتظر خارج الغرفة، وبقيت أنتظر أكثر من ثلاث ساعات، ثم طلب مني أن أرافقه حتى باب المطار حيث كانت تنتظرني سيارة وأربعة جنود، وضع أحدهم القيود في يدي، ومضت بنا السيارة إلى مبنى أنيق في ضواحي مدينة عمان، وهو بالطبع مكان معروف للناس جميعاً، إنه دائرة المخابرات العامة، وفي أواخر السبعينات نشرت مجلة العربي الكويتية استطلاعاً عن الأردن كان فيه صورة لمبنى المخابرات في عمان، وكتب المحرر تحت الصورة أنه مبنى المخابرات العامة الذي يعرفه جميع الأردنيين ويسمونه فندق أبو رسول، نسبة إلى محمد رسول الكيلاني مدير المخابرات الأسبق.

كانت تجربة ثرية، ففي الأيام الثلاثة التي أمضيتها في ذلك المبنى حدثت حوارات ونقاشات طويلة وممتعة، وشربنا القهوة والشاي معاً وتبادلنا النكات، وفي مساء اليوم الثالث حوالي الساعة التاسعة ليلاً أطلق سراحي، ومررت على مسؤول (يبدو أنه كبير) في الدائرة وتبادلنا حديثاً ودياً، ثم أوصلني المحقق بسيارته إلى بيتي على أن أعود بعد أيام لأنه لم يكن يرغب أن أبقى معتقلاً في نهاية الأسبوع، وعندما عدت كان ذلك اليوم أول أيام رمضان في السعودية ودول أخرى، ولكن الأردن أعلن أن رمضان يبدأ في اليوم التالي، وكنت مفطراً والمحقق صائم وطلبت منه شاياً وقهوة وشربت وحدي، ودار نقاش وأنجزنا محضراً يصلح دراسة ما زلت

أتمنى لو أحصل على نسخة منها فقد أتاحت جلسات الحديث المتواصلة استفزازاً ذهنياً وفكرياً في قضايا كثيرة يصعب أن يحيط بها المرء وهو في حالة انشغال واسترخاء.

مضت بعد تلك التجربة سنوات وسافرت في أثنائها مرات كثيرة وانتقدت الحكومة بقسوة ولم أتعرض لأذى وعادت المعاملة الراقية في المطار، ولم أقابل أولئك الأصدقاء اللدودين إلا مرة واحدة لزيارة أخي المعتقل لديهم، فالاعتقال السياسي في عائلتنا تقليد مر به جميع أفراد العائلة، الجيل الأول كان قومياً ويسارياً، والجيل التالي كان إسلامياً، أما الجيل الثالث فقد أخذ بجريرة من قبله.

كانت زيارة أخي سهلة جداً، فقد اتصلت هاتفياً بالدائرة وطلبت المحقق باسمه وتحدثت معه وسألته عن أخي وإمكانية زيارته، قال: بالطبع يمكن أن تأتي الآن، وكان الدخول سهلاً وبسيطاً ومختلفاً تماماً عن الانطباع الذي تخلفه هذه الدائرة في أفئدة الناس (وأني أحدهم) وجاء أخي إلى مكتب المحقق وجلسنا في مكتبه، وقال لي مبتسما: كانت من حسنات اعتقال أخيك أنك زرتنا.

هذه المعاملة الطيبة لم توقف الخوف ولم تشعرني بالاطمئنان في يوم من الأيام، ربما لأن عقلنا الباطني وتكويننا الجمعي يكرس الخوف والشعور بالتهديد، ولكني أحاول أن أعلم أبنائي أن الأمن رجال طيبون يساعدون الناس، ولم أخبرهم أنني اعتقلت لديهم وأنني منعت من العمل والنشر في الصحافة المحلية بتوصية منهم، والمسألة ليست خاصة بي فقد كنت مرة في

مجلس نراقب التلفاز وكان ثمة مشهد لرجال الشرطة يساعدون مصابين في مباراة رياضية في أمريكا أو إحدى تلك البلاد السعيدة فاستغرب جميع الجالسين ذلك المشهد.. وجميعهم أناس عاديون ليس لهم تجربة سيئة مع الشرطة معقول؟! الشرطة تسعف المصابين؟؟

* * *

لماذا أتذكر دائما البرنامج الإذاعي الجميل والمؤثر «وسلامي لكم» ومقدمته المذيعة الرائعة كوثر النشاشيبي، كنا نحرص كل يوم على الاستماع للبرنامج باهتمام ومتابعة مدهشة، ففي بلدتنا في عجلون لم يكن ثمة لاجئون ونازحون، ولا كانت تربطنا قرابة أو معرفة مباشرة بهموم يومية ومعلومات وتوصيات يتبادلها الأهل على ضفتي النهر، وبالطبع لم يعد ثمة مكان للبرنامج بعد تطور الاتصالات ومعاهدة السلام، ولكنه برنامج باق في الذاكرة، كأن الرسائل المتبادلة عن تصريح السفر وعن المواليد والأخبار اليومية، والرسائل الشخصية التي تقرأ كانت نوعا من الأخبار والنضال، هل جذبنا أيضا صوت كوثر النشاشيبي الدافئ كأنه تراتيل، أم كنا نجد في الأخبار والقضايا الشخصية متعة تدعو إلى المتابعة والاهتمام كما نتابع مسلسلا يخوض في الشؤون الشخصية واليومية لعائلة؟

يواصل جيلنا تذكر الأشياء التي مضت، والزمان الجميل الذي انقضى أو نحسبه جميلا، الرسائل والطوابع البريدية؟ والخيبة التي كانت تصيبنا عندما تصل الرسائل بدون طوابع، فقط مدموغة بالماكينة، حياتنا اليومية التي تمضي على إيقاع الإذاعة، معرفة الوقت بالبرامج الإذاعية، السلام

الملكي يختتم البرامج، كان انتظاره طقسا يوميا، نسأل كل يوم هل حضرت السلام الملكي؟، ونقول في بعض الأحيان بخجل: غلبني النعاس، والافتتاح الساعة الخامسة والنصف بالقرآن الكريم، وموجز السادسة، وبرنامج الحاج مازن القبح للمزارعين، والحديث اليومي للدكتور إبراهيم زيد الكيلاني، ونشرة السابعة، وحديث الصحافة، وحينها نعرف أننا يجب أن نهرول إلى المدرسة!

في الإقامة بعيدا عن الوطن والأهل وفي الوحدة والعزلة تستحضر هذه الذكريات كأنها تعيد تشكيلنا، صحيح أننا نتواصل بالهاتف ورسائل الموبايل والإنترنت والإيميل على نحو يغير كثيرا من معنى السفر والغربة، ولكن ذلك لم يغير من طعم البعد والحنين والحزن على الفراق، كأنني لا أريد مغادرة طفولتي وأحلامي، الطفولة تشكلنا للأبد، ولكن جزءا كبيرا ومهما من التشكيل يكون بوعي وإرادة، وعندما نخرج من ذواتنا ذلك الطفل المتبقي في أعماقنا ولا شعورنا نفقد الدليل الصحيح للتقييم والمشاعر النبيلة والسلوك وأيضا التفكير، فنحتاج دائما إلى طفولتنا لنرى الأشياء كما هي ونفهما كما هي، ونحتاجها أيضا لنبقي على الجمال الذي منحنا الله، وبدون هذا الطفل نتحول إلى كيانات بليدة خطيرة على نفسها وعلى الناس.

المرء في شعوره بالوحدة والحنين والحزن وفي تعلقه بمدينته وأسرته، وفي قدرته المتواصلة على الملاحظة والتسجيل، وفي تفاعله مع الأمكنة وتعلقه بها يختزن قدرا كبيرا من الطفولة التي بدونها لا نعود نحن، وإنما كائنات مثل مكائن متشابهة لا فرق بينها.

ولكنه زمن مضى بكل ما له وعليه، ولا يجدي كثيرا أننا نرفض مغادرته، هل بقي مجال للذكرى والحنين؟ كلنا نقرأ منذ تسعين سنة شعر أحمد شوقي في حنينه إلى الوطن،

«اختلاف الليل والنهار ينسـي

اذكرا لـي الصبا وأيـام أنسي

وسلا مصر هل سلا القلب عنها

أو أسـى الزمان جرحها المؤسـي

وعندما لجأ عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، وصار ملكا عليها بعدماكان مطاردا خائفا على حياته، ظل يتذكر الشام، وقال مخاطبا نخلة زرعت أمام قصره:

يا نخـل أنت مزيدة مثلـي

في الأرض نائيـة عـن الأهـل

ولو أنها عقلت أذن لبكـت

ماء الفرات ومنبـت النخـل

لكنها حرمـت وأخرجنـي

بغـض بني العبـاس عن أهلي

وهو (الوطن) عند إيليا أبو ماضي وطن النجوم

وطن النجـوم أنـا هنـا

حـدق، تذكـر مـن أنـا

زعموا سلوتـــــك ليتهـــم

نسبــــــوا إلــــي الممكنــا

ولكننا اليوم نهاجر بالملايين ونمضي في العالم بلا حنين ولا ذكريات، كأننا نتخلص من عبء ثقيل، كأن اللاشعور يمنحنا الراحة والتكيف والقدرة على النسيان، فتبدو وأنت تستعيد الزمن كأنك رحالة كان يرافق قافلة، ولكنه امتد به الزمن حتى يومنا هذا دون أن يشعر، كأن الزمن أمكنة ومواقع في الكون، هذا الإصرار على الحنين والذكريات يعيدني إلى أيام كنا ننتظر الرسائل من الأهل والأصدقاء، ثم نعكف الليالي في الكتابة إليهم فنبكي ونبكيهم، وظلت هذه الرسائل ترافقني من بلد إلى بلد، لم تعد تزيد شيئا منذ، ... منذ متى؟ كأن الاتصالات والإنترنت تفصل بين زمنين وعالمين، بل بين كوكبين وحضارتين مختلفتين، وعندما استقر بي المقام بعد رحلة طويلة في البلاد والأمكنة كان معي كرتونة تشير إشارات الخطوط الجوية المختلفة إلى البلاد والرحلات الكثيرة والمتعددة التي مرت بها، مليئة برسائل وكتابات وخواطر وملاحظات، لم يكن يعلم بها أحد سواي، وتبدو لغيري كومة من الأشياء، لماذا الإصرار على الاحتفاظ بها ونقلها من بلد إلى آخر؟ هل كنت إنسانا مختلفا عما أنا اليوم؟ هل نحن اثنان مختلفان، وحملت آلاف الرسائل والأوراق التي كتبتها أو كتبها أصدقاء وأحبة إلى العراء وجلست أقرأ ثم ألقي ما أقرأه في النار، ولكن بعد عدة ساعات كانت رسائل وأوراق أخرى كثيرة جدا لم تقرأ، فألقيتها في النار مرة واحدة، هل كنت مخطئا في الاحتفاظ المرهق بها؟ هل كنت

مخطئا بإحراقها؟ لم يعد صندوق البريد يحمل سوى الفواتير! ورسائل من البنك تقول إن رصيدك صفر، وأوراقا أخرى لا نقرأها، ومجلات لا أعرف لماذا تصدر.

ولكن كان يفاجئني في مرات كثيرة وفي حالات وبلاد متباعدة أصدقاء وأحبة يعيدون بعد أكثر من خمسة وعشرين عاما النصوص التي كتبتها في الرسائل، بل ويحدثني أصدقاء لم أكتب إليهم أو أشخاص لم أكن أعرفهم عن رسالة كتبتها لصديق، نسيت ويتذكرون! وماذا نحن سوى ذكريات ومشاعر، وما الأوطان سوى روايات وحكايات وقصص وأساطير! فماذا نحن اليوم أو من نحن؟ ونحن بلا ذكريات ولا حنين ولا أوطان ولا أساطير؟ يقول الهندي الأحمر للمسؤول الذي ينتزع أرضه «إن كانت هذه أرضك فأين قصصك؟» لماذا هو هندي أحمر وليس أباتشي أو سياتل، لأن رواية قالت إنه هندي أحمر، رواية ما تقول لك من أنت، وما وطنك؟

عندما انتقلنا من بيت كنت استأجرته إلى بيت آخر ظلت ابنتي التي ولدت في البيت وكان عمرها حين رحلنا ثلاث سنوات تصر على العودة إلى بيتنا، تستيقظ في الليل، وتطلب أن نعود إلى بيتنا، وخضعنا لمشيئتها بعدما ظلت لشهرين تستيقظ كل يوم وتطلب أن نعود إلى بيتنا، وعدنا إلى العمارة وليس إلى الشقة نفسها، فقد شغلها إخواني، ظلت تشير إليهم بالقول «الناس اللي أخذوا بيتنا»، ثم في السعي وراء الكلأ والماء وفي الصراع على الماء والوظائف والموارد اضطررت للرحيل مرة أخرى للعمل في بلد آخر، وظل الأطفال يتذكرون المدرسة والمدينة والبيت والأهل والأصدقاء حتى اضطررت للاستقالة والعودة.

دائما ثمة ما يذكرني بالقصة مرة أخرى، ويشدني إلى ما أريد نسيانه، يؤكد لي أن ما دفنته لم يمت، وما أحرقته لم يحترق، وأننا نخسر أنفسنا عندما نخسر أحزاننا، ونخسر بلادنا عندما نخسر الأساطير والحكايات، نحن ذلك الحنين إلى طفولتنا، وبغير هذا الحزن النبيل لا نكون نحن.

لماذا تختلط ذكريات الإخوان المسلمين بذكريات الوطن؟ لماذا أشعر اليوم في غربتي عن الوطن بغربتي أيضا مع الجماعة؟ هل كان الخروج منها مثل الخروج من الوطن؟ لماذا أشعر اليوم وكل يوم بأني مثل حلزونة مذعورة تخاف الناس وتخجل منهم، لا تجد الأمان إلا في قوقعتها، ويطاردها هاجس دائم بأن العالم الخارجي مشغول بهذه القوقعة يريد أن يجعلها مسطحا مكشوفا؟

يسألك زميل: كيف الحال، كيف الصحة؟ تجيب الحمد لله بخير، يظهر اهتماما بك، فيواصل النبش في أعماقك، تبدو متعبا ومهموما، هل أنت مريض، هل ثمة مشكلة؟ أنت لست مريضا ولا مهموما، ولكن يجب أن تكون دائما مسليا ومرحا وتضحك وتمزح، وإلا فإنك تتعرض لاستجواب قاسي ومرير من الزملاء والأقارب والمعارف وسائقي التاكسي، وكونترولية الباصات، تحاول أن تكون مهذبا، وتجاري الزميل متواصلا مع حديثة واهتمامه، فتقول: آه والله تعبان شوي، يبدو أني مفلوز، فيقدم لك نصائح عظيمة عن الأعشاب والليمون والثوم والبصل والحلبة والحبة السوداء والحنظل، ويحذرك من المضادات الحيوية، فتشكره وتحاول أن تمضي إلى عملك، فحين تكون علاقتك مع رب عملك مرتبطة

بإنجازات واضحة ومحددة، مقالة مثلا أو تحقيق أو صفحة تنتظرها المطبعة، فلا يفيدك بشيء قانون العمل ولا الإجازات المرضية والأعياد والظروف الجوية، ولكنه يستبقيك ليحدثك عن قصص الشفاء الحاسم لمرضى الإنفلونزا والسرطان والسكر والضغط بسبب الحبة السوداء وبول الإبل وأكباد الضفادع اليتيمة، فتصغي متصبرا، فيلاحظ أنك شارد الذهن، وتجد أنك بحاجة لتهز رأسك وتبتسم وتعلق قليلا، مثل: والله؟ آاه، تعرف؟ والله تصديقا لكلامك عديل صديق ابن خالة عديلي مرض وكاد يموت، ولم يفده الأطباء ولا المتشفيات حتى مايو كلينك عجز عن مساعدته، وبعدين صار يشرب الغوصلان والحنظل المنقوع مع الدحنون، وشفي تماما، وها هو ما شاء الله مثل الحصان، الزميل الذي تخرج من جامعات الولايات المتحدة يطلب منك برجاء أن تسأل عديل صديق ابن خالة عديلك يدبر له من هذا الدواء العظيم، فتقع في ورطة عظيمة لأنك تظل على مدار الساعة تتعرض لملاحقة في المكتب وبالهاتف الثابت إذا لم ترد على الموبايل لتوفر الدواء للزميل، وطبعا لن تفعل ذلك، وهكذا فإنك تخسر أحد الأصدقاء الأعزاء.

تتعلم درسا مهما في التواصل، وهو أن تكون حذرا في الادعاء حتى لا يطلب منك أحد ما لا تقدر عليه، فتقرر أن تحدث الناس عندما يسألونك عن همومك ومشكلاتك الخاصة، فالحلول والمطالب هنا ستكون معنوية ليس فيها كبريت أحمر ولا إكسير الحياة، تحدث الزملاء عن مشكلاتك مع ابنك في التعليم والمدرسة، رفاق المدرسة والمعلمون والمدارس والمناهج

والنتائج المدرسية، وبالطبع فإنك تتلقى مجموعة كبيرة من النصائح المتوقعة، أنت تعتقد أنك تتواصل مع الزملاء، وهم يتسلون بالشفقة عليك ومساعدتك بالنصائح والأفكار، ما أخبار المدرسة؟ هل مازال ابنك في مدرسة خاصة؟ يا رجل اسمع نصيحتي وانقله إلى مدرسة حكومية، كيف تسمح له باللعب والخروج مع هؤلاء الرفاق، ما قرأت قوله تعالى «قوا أنفسكم وأهليكم نارا»؟ تعرف؟ أخو المدام مدرس خصوصي ممتاز، شو رأيك احكي معه؟ وهنا تصل اللعبة إلى نهايتها، ولا بد أن تضع حدا للتواصل، فتقفل الموضوع وتخبره أن ابنك تحسن في الدراسة، وأنه تعرف على رفاق ممتازين، وأنه صار يذهب إلى المسجد كل يوم، وسجل في جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وأنك أوقفت دروس تعليم الموسيقى، ثم تنصرف إلى الكمبيوتر وتبدأ بقراءة الإيميل، فيقترب منك أكثر ويساعدك في قراءة الرسائل، فتتظاهر بالصداع، وتقترح الذهاب إلى الكافتيريا لشرب القهوة، وقبل أن تدخلا الكافتيريا، تذهب إلى الحمام، وتخرج مسرعا واضعا الموبايل على أذنك، وتخسر صديقا عزيزا آخر.

تقرر أن يقتصر التواصل على الانسحاب الأمريكي من العراق ودور المقاومة في تحقيق الإنجاز، وهل جيش المهدي ضد أمريكا ولا ضد المقاومة؟ والصراع العربي الإسرائيلي والحوار بين فتح وحماس، والتنافس بين ليفنى وموفاز، إياك أن تظهر انحيازك إلى ليفني فكلهم يهود وصهاينة ولا فرق بين ليكود ولا عمل، ولكنك ستواصل خسارة الأصدقاء والفشل في التواصل.

يقول الموظف لصديقه الجالس بجواره اخفض صوتك ففي هذه المكاتب يسمع الناس بعضهم بعضا، فجاء صوت من بعيد يصرخ باحتجاج: هذا ليس صحيحا، فلا أحد يسمع هنا شيئا، والقصة ليست المثال الوحيد على ضياع الخصوصية في منظومة حياتنا، حتى تحولت من كرة مغلقة إلى سطح مكشوف، كل شيء فيها معروض للمشاهدة والتعليق، والسخرية، والنصيحة، والنقد، والشفقة، والحسد.

الأصل في الأشياء التكور، فالأرض كروية، والكون مثل كرة، والذرات والجزيئات تميل في سعيها للحد الأدنى من الطاقة إلى التكور، وقطرات الماء كروية، وأتوقع أن كرة القدم كروية أيضا، والإنسان في خصوصيته وامتلائه دائما بالأسرار والخصوصيات مثل كرة.

تندلق الأسرار والفضائح والقصص والمعلومات، وتسيح على السطح، ثم تتحول إلى كومة من الخردوات والنفايات، وكأنها صحيفة الأمس، أو تلفزيون رسمي في زمن الفضائيات، وأنت أيضا تتمزق مثل كرة تحولت إلى خرقة، تناثرت محتوياتها للناس جميعا والعابرين، كل ما لا تحب أن يطلع عليه سواك يصبح معروضًا أمام الناس يتسلون بالنظر إليه، وركله، والسخرية به، ويستمتعون بالنصيحة، والنقد، والتعليق، ويجلدونك بالرأي، والتشجيع، والشفقة، ثم تتحول أنت إلى شيء ممل غير مسل، مثل شيء يجب التخلص منه، انتهت صلاحيته، لم يعد يثير الفضول، ولا يغري المتطفلين، فقيمة الإنسان تقاس بمقدار ما يمكن للناس أن يراقبوا فيه ويعرفوا عنه.

وتتشابه المدن، والشوارع، والمأكولات، والمطاعم، والأذواق، وقصات الشعر، وملابس النساء، وقصائد الغزل، حتى الصحف يمكن أن تتحول إلى صحيفة واحدة، ويكون لدى باعة الصحف أختام بأسماء الصحف وشعاراتها، وإذا طلبت صحيفة ما يخرج من كومة من الصحف المطبوعة بلا عنوان ويضع عليها اسم الصحيفة التي ترغبها، ويمكن أن تفعل ذلك بنفسك، إذا كنت تستخدم الإنترنت.

ماذا يحدث للإنسان عندما يشعر أن كل شيء مكشوف أمام الناس؟ إنه لن يعدل سلوكه كما يتوقع البعض، ولكنه سيفقد حياءه وخجله من الأفعال ويتصرف ويتحدث كما يفكر تماما، لن يعود الحياء دافعا للفضيلة، سيفقد احترامه لنفسه وللآخرين، يعيش حالة توتر دائم، أو لا مبالاة دائمة، وفي الحالتين سيكون كيانا خطيرا على نفسه وعلى الآخرين، هذا ما يحدث دائما للمساجين الذين يخضعون لحالة دائمة من المراقبة الشاملة والتفتيش، والشك، حتى الشرطة الذين يعملون في السجون فإنهم مع الزمن يتحولون إلى سجناء، ويكتسبون صفاتهم، وحتى علاقتهم بذويهم ومن حولهم تكون كما يتعاملون مع المساجين والمتهمين.

وفي العمل، حيث يجلس المحررون في فضاء واحد مشترك (نيوز روم) ونكب على أجهزة الكمبيوتر نتطلع فيها ببلاهة وندير ظهورنا للدنيا (يا للبشاعة) ويجعلني ذلك أتعرض لمراقبة (أو زيارة) من الخلف وأكون مستغرقا في العمل أو التفكير، فأجد صاعقة من كلام أو تعليق أو سؤال يستوضح عما أفعله ،تنقض علي تهزني، تقتلع كياني، ثم تمضي لحظات

ثقيلة من الانتظار المضني لا أعرف فيها هل مضى ذلك الزميل الزائر أم انصرف؟ هل أعود إلى عملي؟ ماذا لو كنت أكتب رسالة خاصة؟ أو أعمل شيئا لا أرغب أو يجب ألا يطلع عليه هذا الزائر؟

فالفضاء الواحد يعطي شعورا للناس أنهم شركاء في كل شيء ويحق لهم الاطلاع على كل شيء، فيزحف زميل على كرسيه ذي العجلات ويقول مازحا: إنكما تتحدثان بصوت منخفض، ارفعا صوتيكما حتى أستطيع أن أسمعكما، ويقول شخص يقف من فوق رأسك لم تكن تعلم أنه يراقبك: لماذا تكتب بخط صغير، أكتب بخط كبير حتى لا تؤذي عينيك (وأستطيع أن أقرأ ما تكتب) ويأتيك زميل يستكمل فهم الحوار الذي دار بينك وبين شخص آخر بالهاتف فهو لم يفهم بعض ما دار بينكما من حديث.

وكانت رسائل العشق وإشاراته تتم بالمناديل فلكل شخص تقريبا منديله الخاص الذي يطرز عليه اسمه، ولكن الناس جميعهم يستخدمون مناديل زائلة لا تستخدم إلا مرة واحدة، فلا تصل إلى رئيس التحرير مناديل مطرزة ولا رسائل معطرة فجميع الرسائل تتشابه في البريد الإلكتروني وكذلك بطاقات التهنئة، فيحتاج أن يسألني ليعرف إن كان ثمة معجبات بكتاباته، ولكني لا أعرف إلا معجبين يبحثون عن عمل.

الإعلام فعل بالناس أكثر من ذلك بكثير.

ماذا سيكون مصير الفكر والعمل والنضال لأجل الحريات وحقوق الإنسان والبيئة والتنوير والنهضة والتنمية، ومسائل أخرى في غاية الأهمية لو لم تعقد مؤتمرات رائدة في أبهى الفنادق في العواصم العربية والعالمية،

ولم يكن بالتحديد البرنامج المخصص للاستراحات والرحلات والطعام والشراب محضرا بسخاء ونجاح وكفاءة علمية ومهنية؟

لقد قدم الكتاب والمفكرون والأكاديميون والقادة السياسيون والتنظيميون في تلك المؤتمرات أوراق عمل ودراسات غيرت في مسار الفكر الإسلامي والسياسي، وساهمت في إحلال الديمقراطية في الدول العربية والإسلامية، وطورت البيئة وأنقذت الغابات والطيور، وخفضت التصحر من نسبة 99 ٪ من مساحات الوطن العربي، وزادت مساحة الغابات من أقل من نصف بالمئة، وأثبتت أن الإسلام لا يتعارض مع الديمقراطية، بل ويدعو إليها أيضا، وتحدث المشاركون بحرية وإن لم يكن يستمع إليهم أحد، وقدموا رؤى في غاية الأهمية وإن كانت مرتجلة وقيلت مئات المرات من قبل الأشخاص إياهم في المؤتمرات السابقة.

وكانت أيضا مناسبة لتلتقي المجموعة إياها بلا زيادة ولا نقصان، والتي تلتقي في كل مؤتمر وندوة سواء كانت عن البيئة أو حقوق الإنسان أو حماية الطيور المنقرضة أو تنمية المجتمعات الريفية، أو تطوير المجتمعات المدنية والأهلية، أو التعليم في الجامعات ودورها في بناء التقنية ونقلها، أو مشروعات المياه، أو السياسات العامة، أو الإسلام السياسي، أو مستقبل القاعدة والإرهاب، أو الحوار الإيراني الأمريكي، أو لمناقشة تقارير تنموية أو استراتيجية تصدرها المنظمات الدولية أو مراكز الدراسات الاستراتيجية والدولية لم يطلع عليها معظم المشاركين.

أجواء الحوار والتسامح والمشاركة كانت مؤثرة وتقدمية، فقد أقبل

الإسلاميون بحماس وحرارة على الحلويات والشاي والقهوة، وتدفق العلمانيون على المشروبات الكحولية، وتشاركوا معا في اللحوم والمشويات، وإن أصر الإسلاميون على التأكد من أنها تخلو من لحوم الخنزير، وغازلوا معا نادلات الفندق الجميلات، وتطور الانفتاح الفكري والتعددي إلى زواج احد قادة الحركة الإسلامية من مدمني المؤتمرات والفنادق إلى الزواج بإحدى العاملات في العلاقات العامة في الفندق على طريقة طلاب الجامعات، ولكنه لم يعد إليها بعد المؤتمر، وأما غير الإسلاميين فلا يحتاجون إلى الزواج، ويكفيهم كما أخبرتهم نادلة فيليبينية جميلة بالذهاب إلى الطابق السابع من الفندق.

هل تجهل السفارة الأمريكية التي قدمت إلى أحد مراكز الدراسات ربع مليون دولار في برنامج تمكين المرأة في الانتخابات النيابية أن المركز لم يفعل سوى ندوة قدم فيها الشاي فقط، ودعي إليها المشاركون إياهم من ممارسي العمل العام عل سبيل الهواية وتمضية الوقت والتسلية؟ وهل تجهل تلك المنظمات والاتحادات النسائية التي تعقد عشرات المؤتمرات والندوات وتجوب العالم لتدافع عن حقوق المرأة أن نسبة التعليم الجامعي في الأردن بين البنات حتى في الأقاليم البعيدة عن عمان تفوق كثيرا نسبتها بين الشباب، وأنهن يشاركن في العمل والسفر، ومن ثم فإنهن إذا لم ينتخبن النساء المرشحات فليس لأنهن نساء، ولا لأنهن يتعرضن لضغط ذكوري، ولكن لأن المرشحات لا يقنعن الناخبين والناخبات؟ وأن أهل بلدة الوهادنة في شمال الأردن الذين انتخبوا سيدة لرئاسة البلدية عام 1995 لم

يفعلوا ذلك بسبب نضال الاتحادات النسائية والمؤتمرات الفكرية التي لا يعلمون عنها شيئا ابتداء، وأنهم عندما لم ينتخبوا السيدة إياها عام 1999 كانوا قد اكتشفوا وعرفوا الجمعيات والمنظمات النسائية والمتخصصة بحقوق الإنسان والتنمية الريفية؟

وربما يعتقد البعض أن الدورات التدريبية والورش التي تعقد بنفس الطريقة تكون مختلفة، وأنها يمكن أن تجعل من البرامج الدولية للمعونات والتعاون مع الدول النامية ذات أثر تنموي، أو أنها برامج فعلية، وكنت من هذا البعض حتى شاركت في بعض هذه الدورات لأجد أنها ليست سوى برامج للعلاقات العامة والترفيه يتواطأ عليها الممولون والمنسقون والمشاركون ممن لا يمكن أن تتاح له فرصة للسفر أو التمتع بحياة الفنادق الباذخة لولا هذه المؤتمرات والورش.

لا أحد يجهل في الأردن وربما في البلاد العربية جميعها القيمة الحقيقية للمؤتمرات والندوات والأنشطة والبرامج والفعاليات التي تمارسها جمعيات ومراكز دراسات كل واحدة منها قائمة على شخص واحد فقط، ولكن الاعتراف بهذه الحقيقة سيؤدي إلى ضياع وظائف واستثمارات ومساعدات و«بيزنس» كبير وشبكي.

وهكذا فسوف تكون عملية عبثية وربما انتحارية الانشغال بالتصحيح والرد والتوضيح في السيل المتدفق من الكتابة عن الحركة الإسلامية، وحتى عندما أحظى بمقابلة الصحفيين والباحثين فإنها مقابلة لا أهمية لها ولا تضيف شيئا ولا تغير شيئا، ولا تعني للقادم سوى أن يذكر أنه قابل فلانا، ولكن التقرير معد سلفا.

من اليقين إلى الشك

حين بدأت الكتابة كنت كمن يحمل سيفا بيده يضرب به يمينا وشمالا وعلى كتفه سلم بالعرض، وربما يدور أيضا، ثم اكتشفت أني أخسر الأصدقاء قبل الخصوم وأني أخوض معارك مع طواحين الهواء، راجعت نفسي وتوقفت عن الكتابة، وحين عدت إليها وجدت أني أدخل في مرحلة جديدة من الفهم والمنهجية في العمل والكتابة ثم بدأت أدخل في مرحلة تلو أخرى وجدتها سلسلة من المراحل والنشوء والارتقاء حسب نظرية دارون ويمكن تلخيصها بمجموعة من الشعارات التي تلخص المسار وتعبر عنه، والإنسان يختزل فهمه للحياة وموقفه من الأحداث بجملة قصيرة، أو حكمة، أو بيت من الشعر، أو نكتة، أو قصة رمزية، وقد يكون الشعار هذا فردياً أو تتبناه مجموعة، أو شعب، أو دولة، وقد ينتشر ويعرف، أو يبقى محدوداً ولكنه يبقى دائماً جديراً بالتأمل والاستذكار.

دعوها فإنها مأمورة أو «ثم تولى إلى الظل»

يحتاج الإنسان إلى العزلة والمراقبة والتأمل، ففي كثير من الأحيان تكون السلبية أفضل فلسفة يحمي بها الإنسان نفسه، أو تكون حالة وسطاً تعين على المسير الطويل عندما يكون التصدي المباشر انبتاتاً يقطع الظهر، فيصلح هنا القول مثلا «دعوها فإنها مأمورة» أو «ثم تولى إلى الظل» . . إنها استراحة المحارب أو توقفه للنظر والبحث والتفكير، والمراجعة أيضاً، ففي كثير من الأحيان يصعب رؤية المشهد أو فهمة وربما يكون مستحيلاً إلا بالخروج منه، إنني أواجه المشكلة كل يوم في شوارع المدن المستحدثة الهائلة فأنت يتحول اتجاهك دون أن تشعر إلى الاتجاه المعاكس، فيصبح اتجاهك نحو الشرق تماماً وأنت تعتقد أنك تسير نحو الغرب، تحتاج أن تراقب المدينة بالطائرة أو تنظر إلى الخريطة حتى تفهمها، وهكذا فاقتراب الإنسان كثيراً قد يحجب عنه الفهم والإدراك والإنصاف، وقد يكون البعيد أكثر قدرة على الفهم وإحاطة بالمشهد، وفي الاستراحة والمراقبة والعزلة زاد أيضا لأن الكلل يؤدي إلى الملل، والمنبت لا يقطع أرضًا، ولا يبقي ظهراً.

الذئاب الروسية

الذئاب الروسية حين يهدها الجوع في صحارى الجليد السيبيرية ولا تجد شيئاً تصيده حيث تنعدم الحياة، أو تتوارى في الشتاء والليل الطويل تتجمع الذئاب المتضامنة والتي تعيش على شكل مجموعة تصيد معاً

وتحمي نفسها وتتحلق في تفاهم ضمني على أنه لا حل لهذا الجوع الرهيب سوى أن يقدم بعض القطيع نفسه للآخرين حتى لا يموت الجميع، إنه قانون الطبيعة الرحيم، ولكنها رحمة لا تتحقق إلا بالقسوة، ثمة أشياء كثيرة لو تركت لنا نقررها لما فعلنا، كالموت مثلاً، لو كان قراراً نتخذه نحن وليس مفروضاً علينا لا خيار لنا فيه، وبما أن البقاء للأصلح والأقوى فإن الذئاب تدخل في صراع مع النعاس والنوم لأن الذئب الذي ينام سيأكله إخوانه، والذي يستطيع أن يقاوم النوم فإنه جدير بالحياة والبقاء، فالنوم شكل من أشكال الموت، ولكن الذئب الضعيف أو النعسان يحمي القطيع والحياة والنوع، يجب أن تبقى يقظا دائماً حتى لا يأكلك إخوانك أو الفريق، والذئب ينام بعين واحدة، والعين الأخرى تبقى يقظة تراقب.

باص رقم 5

تقدم شاب للخدمة العسكرية، وتظاهر بأنه لا يرى حتى يعفى من الخدمة، سأله الطبيب: ما هو الحرف الأول في السطر الثالث؟ قال: أي حرف يا دكتور؟ قال الطبيب: الحرف الذي في اللوحة، قال الشاب: أي لوحة يا دكتور؟ قال الطبيب: اللوحة المعلقة على الجدار، قال الشاب:أي جدار يا دكتور؟ واقتنع الطبيب أن الشاب لا يرى شيئاً، فقرر إعفاءه من الخدمة، وفي المساء كان الطبيب يحضر فيلماً في السينما، والتفت فرأى بجانبه الشاب إياه الذي أعفاه من الخدمة، فقال له: كيف تستطيع أن ترى الفيلم، ولا تستطيع أن ترى الجدار؟ قال الشاب: أي فيلم ؟ أليس هذا هو باص رقم 5

وقديماً قال الشاعر : .. ولكن سيد قومه المتغابي

نصائح

وفي الحياة والمراحل شعارات أخرى كثيرة يمكن تقديمها، مثل ذلك الكاهن (يمكن أن يكون عمدة أو مديرا أو صديقا) الذي لجأ إليه فلاح مسكين، قال له يا سيدي: الدجاج عندي يموت قال له الكاهن/ الصديق/ المدير/ أطعمه ذرة، وبعد يومين جاء الفلاح وقال له الدجاج ما زال يموت برغم أني أطعمته ذرة، قال له:أسقه ماء مملحا، وبعد أيام جاء الفلاح، وقال : ما زال الدجاج يموت يا سيدي، قال : أنقله من القن إلى بيتك، فوضع الفلاح الدجاج في إحدى غرف المنزل، ولكن الدجاج مات جميعه، وجاء الفلاح وقال: لقد مات الدجاج كله يا سيدي، فتأسف الكاهن كثيراُ وقال: لقد كنت سأقدم لك نصائح كثيرة جداً لو لم يمت الدجاج.

وهكذا تطورت إلى كائن يقدم النصائح للأمة لكي تنهض من كبوتها، ينتقد مؤتمرات القمة التي تكتفي بالشجب والإدانة، ويدعو إلى ضرورة التخلص من الواقع المرير، وفهم المرحلة الدقيقة والحرجة، ويوضح للناس ويجلدهم ويقرعهم على أخطائهم وتقصيرهم، إنها متعة عظيمة نصيحة الناس وجلدهم وانتقادهم وكشف عيوبهم و(إرشادهم إلى الصواب)

ديناصور

ربما أكون من تيار الديناصورات، وقد أسعدني كثيراً في فيلم الديناصور

الذي حضرته مع أطفالي أن الديناصورات يمكن ألا تنقرض، وتستطيع أن تحافظ على بقائها، والواقع أني منذ سنوات عدة وأنا مصاب بمرض الخوف من الانقراض، وألاحظ أني مشروع ديناصور تتجاوزه الحياة، وهي مخاوف تغذيها مشاهد واقعية من اليساريين والقوميين الذين تحولوا إلى كائنات تثير الشفقة على بعضهم أو الاشمئزاز من البعض الأخر، فأولئك الكتاب والسياسيون والزعماء والمفكرون والصحفيون والأدباء الذين كانوا ملء السمع والبصر أصبحت كتبهم ومجلاتهم لا يقرأها أحد، وتوقفت مجلات وصحف عريقة بعدما واصلت إصدارها عشرات السنين، وبقاياهم ممن لم يجد مكانا أو مأوى يستجدي الصحف ودور النشر ليجد مكانا ما أو مصدر رزق، هل يعقل أن رؤساء تحرير صحف ومجلات كان لها شأن يعاملون كما الهواة والمبتدئون ويزاحمون الكتاب الشباب الذين كانوا يتباهون بأنهم يقرؤون لهم، والبعض الآخر تحول إلى بيوت خبرة تحت تصرف الحكومات لملاحقة الإسلاميين والتحريض عليهم وكأن فرصتهم الوحيدة في البقاء والعيش هي بقاء الحرب قائمة بين الحكومات والحركات الإسلامية.

ولكن ليس اليساريين وحدهم ولا انهيار الشيوعية والاتحاد السوفييتي فقط يصيبني بالخوف من التدنصر، وإنما أيضاً أنماط الحياة الجديدة، والعولمة، وثالثة الأثافي عندما يداهمني شعور بأنه لم يعد لدي شيء أكتبه وأن رئيس التحرير قد يجد يوماً ما أني لا أكتب ما يستحق أن يدفع له، أو أن ما يدفعه يذهب سدى، أو أن الإنترنت والفضائيات يمكن أن تقضي على أمثالنا.

وخطر لي أني تحولت إلى كائن غريب لم يعد يقدر على الكتابة، أو أنه لم يعد يملك شيئاً يكتبه، فالكتابة مثل خزان الماء الذي يأتيه الماء من البلدية ويعطي الماء للبيوت فإذا توقفت البلدية سيتوقف الخزان، من يقدم الماء: البلدية أم سلطة المياه والمجاري؟ لماذا تجمع الحكومات بين الماء والمجاري؟ لتسقينا الحكومات «مجاري» إذا غضبت، أو تسقينا ماء إذا رضيت عنا، شيء جميل وممتع أن تحرم الناس، تفصلهم من وظائفهم، لا توافق على طلب إجازاتهم، فالفرصة الوحيدة للمدير ليشعر أنه مهم أو شيء ما أن يرفض إعطاء الموظفين إجازات، ويمنعهم من السفر في عطل نهاية الأسبوع أو الأعياد.

ولاحظت أنني في العمل والمجالس أكون من أكبر الموجودين أو أكبرهم سنا، وان أجيالي صاروا جدوداً، وكثير منهم مات أو مصاب بالسكري، والجلطة، والقولون، والقرحة، ومن سلم من الصلع فإنه يصبغ ما تبقى من شعره، وليس المفزع كما اكتشف جهاد الخازن أن يناديني الأولاد: «سيدو» ولكن عندما يكون الواحد زوج «تيتا» أو حين تناديك زميلة في العمل بـ «عمو» فتقول في سرك: «عمى يعميك» وأما أجيالي الذين أحيلوا على التقاعد منذ أكثر من عشرين سنة فهم بالمئات، لأن كل أبناء بلدتي يذهبون إلى الجيش إلا متعوسي الحظ من أمثالي، وهم قليل لحسن الحظ، وعندما توقف الجيش عن استيعاب الناس صار الأولاد يدرسون في الجامعة، ويوجد اليوم في بلدنا الذي يبلغ عدد سكانه سبعة آلاف نسمة حوالي ألف جامعي، عدد العاطلين عن العمل منهم خمسمائة،

ولذلك صاروا يدرسون ماجستير ودكتوراه، والبنات أيضاً يتحايلن على البطالة والعنوسة بمواصلة الدراسة.

ولكنى عرفت أنني لدي أشياء كثيرة في الخزان يمكن أن أكتبها، ويبدو أن البلدية، أو سلطة المياه، أو المجاري ما زالت تضخ في الخزان، لدي أخبار كثيرة وحكم جديدة تعلمتها يمكن أن أكتب عنها، وهناك أيضاً تجارب وخبرات عظيمة تكونت أو جاءت على الخزان، والحقيقة أن الساحة مليئة بالأحداث والأخبار التي نتعامل معها.

المراكز التجارية موضوع مهم جدا ويشغل الناس، والإحاطة بمثل هذه القضايا تجعل المرء مواكبا للتطورات، المشهد عظيم يا سادة، والعالم هجمت تملأ العربات، كل عائلة تدفع عدة عربات من النوع الكبير الذي تحمل الواحدة منه أكثر من دكان أبو دواس رحمه الله الذي ظل مصدر التموين الوحيد لقريتنا ربما لأكثر من قرنين من الزمان، ماذا يفعل الناس بهذه المواد، أعتقد أنني نقلت إلى البيت ما يفتح سوبر ماركت من النوع الكبير، وأولادي يعتقد من يراهم أنهم مصابون بسوء التغذية أو أنهم من ضحايا المجاعة، فلا يعنيهم من كل ما أحضره من لحوم وأسماك ودجاج وخضروات وفواكه سوى الشيبس والشوكولاتا، ولكن بيت القصيد والحكم والتجارب العظيمة التي يمكن أن أكتب عنها ، هي في الفرق بين المطهرات والمنظفات، الديتول والسيتول، والفيتول، والذيتول، صحيح أنها كلها تضع سيفاً ولكن هناك فرق بين السيوف، وكذلك الأمر بالنسبة للتايد والأريال والأومو ، والزيوت أيضاً يمكن أن أولف حولها موسوعة

حية محدثة فليس المهم معرفة الأنواع وأسعارها وأحجام العبوات، لكن هناك بعد مهم جدا في الموضوع: السحب والهدايا والعروض (ال أوفر) والتنزيلات.

المطاعم أيضا هي مادة واسعة للكتابة ويمكن أن أصدر صفحة يومية مثل صفحة الثقافة والسياحة أو ملحقا أسبوعيا، وكل ما تكون الدنيا رايقة أذكر هدى بالمطعم الدائري وكيف كان يدور فينا ونحن نأكل، وهناك المطاعم البحرية، والمطاعم الصينية، والإيرانية، والهندية، وأيضا مطاعم الفول والحمص، والشاورما، والمطاعم النباتية، وغيرها كثير جداً زرتها وعرفتها ويمكن أن أكتب عنها الكثير.

زميلة طمأنتني، لا تخف فهناك دائماً مكان لأمثالنا، ولن يضيق العالم بنا، ولكن مهناً كثيرة انقرضت ولم يعد أحد يعرف أصحابها، ولم يعد العالم يتسع لها، من يصيد اللؤلؤ اليوم؟ ولولا الهنود لن نجد من يصيد لنا السمك، وصانع الطرابيش، ومصلح بابور الكاز، ومبيض النحاس، وحاذي الخيل، والبائع الدوار فايز الصقري، ومحطات التلفزيون ووكالات الأنباء الرسمية.

رئيس تحرير إحدى الصحف أيضاً يحاول أن يطمئننا ويطمئن نفسه، فهو يؤكد أن العالم ما زال يحتاج إلينا وأن الصحافة الورقية باقية وأن الإنترنت لا تضرنا ولكنها ستؤثر على التلفزيون، وربنا يسمع من رئيس التحرير هذا، ويجعل بأسهم بينهم شديداً (التلفزيون والإنترنت) وفخار يكسر بعضه.

ولكني عاودني بعد سنوات قليلة شعور بالرعب أكثر من قبل، فحين عدت إلى الكتابة الصحفية توهمت لعدة سنوات بعد ذلك أنني أدخلت نفسي في مرحلة من النشوء والارتقاء، اقتنيت جهاز كمبيوتر، واعتكفت أعلم نفسي، ثم بدأت العمل في قناة الجزيرة، وانسحبت من الإخوان المسلمين، ولكن ما كنت أحسبه نشوءا وارتقاء ليس إلا قدرة على التكيف والبقاء، قدرة الديناصورات على البقاء يخيف أكثر من انقراضها، وما نراه في السياسة والاقتصاد والإعلام في حياتنا ودولنا ومجتمعاتنا من قدرة «التدنصر» على التكيف والمقاومة، بل وفي إنتاج عبقرية الفشل والإفشال، وتطوير المعلوماتية والتقدم العلمي لتكريس التخلف وتطويره، أليس يدعو إلى الرعب أن الأكثر حضورا وفاعلية اليوم في ميادين الإنترنت والفضائيات هم الأكثر تخلفا؟

لماذا لم تنشئ المعلوماتية بعد (هذه ال«بعد» محاولة للمواساة، وبحث يائس عن فسحة للأمل) ثقافة جديدة على قدر من التسامح والنسبية والاستيعاب تتفق مع حالة تشكلت واقعيا أننا عالم واحد، أو كما يقول الإعلان الجميل المؤثر لإحدى شركات الاتصالات العربية، نعيش في فضاء واحد، وعلى أرض واحدة، ونتنفس هواء واحدا، وتطل علينا شمس واحدة، فليكن تواصلنا (والدعوة هذه لشركة الاتصالات) كما لو أننا في بلد واحد.

الحركات الإسلامية بكل أطيافها وأفكارها ومواقفها سواء كانت للإصلاح أو المقاومة، معتدلة أو متطرفة، سلفية أو وسطية تحركت نشطة

وبسرعة قياسية لتنتج نفسها وفق عالم الديمقراطية والتسوية السياسية والإنترنت والفضائيات، ولم تعد كل النصوص التحريمية عائقا كما أغرقتنا الدراسات العربية والاستشراقية أمام تكيفها وبقائها، ولكنها في ذلك لم تنشئ فهما جديدا للنصوص والمرجعيات، ولا تمنحنا ثقة وطمأنينة بجدوى الانتخابات والتقدم العلمي، لم تكن في مشاركتها الديمقراطية أو تحالفاتها السياسية مع الغرب كما في العراق وأفغانستان، وحتى في مظنة دخول حماس في تسوية سياسية أو مصالحتها مع إسرائيل تمارس حالة من فهم جديد أكثر إبداعا وتقدما، ولا تعيد تشكيل نفسها في عملية نشوء وارتقاء كما يبشرنا داروين، ربما كان حزب العدالة والتنمية في تركيا استثناء أو طفرة لم تتكرر في بلد عربي أو إسلامي آخر.

وفي الإمكانات الكبرى التي أتاحتها «المعلوماتية» لتقدم التعليم لم تستطع بعد جامعة عربية أن تكون من بين الجامعات الأكثر أهمية وتقدما، لم تغير الإنترنت وفرص التعليم عن بعد والمعرفة الهائلة المتدفقة والمتاحة إيجابيا في التعليم، بقيت الجامعات والمدارس كما هي أشبه بكتاتيب بائسة محدودة تصر على التلقين والأمالي، ولكن وفق تقنية متقدمة، وربما كان استخدامها الرائع والأمثل في القدرة على العزل بين الذكور والإناث مع مواصلة التعليم!

نشرت الصحف الأردنية أن مدرسة إسلامية للإخوان المسلمين ستنشئ مسبحا أولمبيا، هذه المدرسة لم تعلم طلابها شيئا من مهارات الكمبيوتر، وبالطبع لم تحاول أن تعلمهم الرسم والموسيقى وسائر الفنون،

ولا الرياضة التي يتعلمها الطلاب في مدارس القرى المعزولة في الصحراء والغابات والمجاهل، وبالطبع فإنها لن تعلم التلاميذ السباحة، ولكنها ستفسح (تجاريا) المجال للناس أن يسبحوا على الطريقة الإسلامية، كيف تحول الإقبال على التدين إلى استثمارات واسعة، مسابح وأندية رياضية، ورحلات للحج والعمرة، وصالات للأعراس، وأسواق للحجاب، وشركات للإنتاج الصوتي والتلفزيوني، وصحافة وإعلام، كل ذلك على الطريقة الإسلامية، ما معنى إسلامية؟ ولماذا لم ينشئ هذا الإقبال العظيم على الدين سلوكا ثقافيا واجتماعيا أكثر رقيا وتسامحا وملاءمة للمدن المزدحمة المرهقة؟ أو روايات وفنونا ومسارح وكتبا ومجلات للعلم والثقافة ومشروعات وبرامج للتنمية والعمل ومكافحة التلوث والتصحر وزيادة الإنتاج والفاعلية؟ لماذا نجح المستثمرون وفشل الإصلاحيون والتنمويون في التعامل مع الدين؟

يشمل الفقر في الأردن أكثر من نصف السكان، ويزحف التصحر على ما تبقى من الأرض، وتتراجع حصة الغابات في جباله لتقترب من الصفر، ولا ينتج أكثر من عشر احتياجاته الغذائية، وتعجز المدارس عن استيعاب الأطفال، وتتلاشى الحدائق والمكتبات العامة، ويكاد النشر الثقافي والفكري يكون مثل عمليات التهريب والبيع على الإشارات الضوئية، وتتحول مراكز الدراسات النادرة والمحدودة إلى ما يشبه الدكاكين، ولكن المساجد تتضاعف مزدانة بأفضل أنواع الحجر والرخام والسجاد والثريا في العالم، يوجد في الأردن اليوم خمسة آلاف مسجد، وكانت قبل

خمسة عشر عاما ألف مسجد، وبعضها كلف عشرات الملايين، ومعظمها احتاج إنشاء الواحد منها نصف مليون دولار على الأقل، لماذا نشأ هذا الدافع العظيم لإنفاق المليارات لبناء المساجد، ولم يجد له مجالا في مراكز الدراسات والطاقة الشمسية والسدود والحصاد المائي في بلد هو الأفقر مائيا في العالم، أو لزراعة الصحارى والجبال في بلد لا يكاد ينتج شيئا من غذائه.

وفي أسلوب الحياة والاستثمار يكاد يكون لدى كل أردني جهاز موبايل، ولكن المجلات والكتب العلمية والثقافية التي تتاح بأسعار رمزية تواجه العزوف والتجاهل، وتدفقت مئات الملايين من القرى والمخيمات للاستثمار في توظيف الأموال وشراء العملات والأسهم، وتحولت الإنترنت في القرى إلى بورصات عالمية، ولكن أحدا لم يسمع في هذه البلدات عن مصانع واستثمارات في الزراعة والغذاء والتقنية واللباس والدواء والصحة والتعليم والمياه والطاقة، لماذا يكون الماء والغذاء والطاقة ليس مجالا مغريا للاستثمار وتكون الأسواق المالية العالمية والمجالات الوهمية قادرة على اجتذاب كل المدخرات الأردنية؟ كيف يتهافت المواطنون على هذا النحو المرعب على الاستثمارات الوهمية ولا نسمع بشركات مساهمة وعامة تعمل في مجال التمويل والماء والغذاء والطاقة؟

ما يجري لدينا في وجهة الناس وطريقة الإنفاق والاستثمار تصيب بالقلق على مصير كل منجزاتنا التنموية، وتجعل كل هذه المؤسسات التي

بنيت والمشروعات الصحية والتعليمية والأساسية القائمة مهددة بالزوال والانهيار، فهذا الانفصال بين الاحتياجات الأساسية من الغذاء والماء والدواء والتعليم والصحة والطرق والغابات والاتصالات والثقافة وبين الاقتصاد والاستثمار والإنفاق لا يعني فقط كارثة اقتصادية واجتماعية، ولكنه يؤشر على اتجاه عكسي في التقدم والتنمية، وحين يكون اقتصادنا قائما على التسلية والأسهم والبورصات، وتتحول السدود والمدارس والعيادات ومشروعات الطاقة والزراعة والغذاء إلى جزء لا علاقة للناس به، قائمة على الصدقات والمعونات الأجنبية وما يتبقى من حصة للإنفاق العام من الضرائب التي تجمعها الدولة نتحول إلى مجتمع من المتسولين، كيف ننتظر من الدول والمنظمات الأجنبية أن تساعدنا في بناء السدود والمدارس ونحن ننفق مئات الملايين على الأسهم والعملات الأجنبية، لماذا يقدم إلينا الأوروبيون والأمريكان من ضرائب مواطنيهم، ونحن نهدر أموالنا وضرائبنا في الوهم؟

***

التوقف عن الكتابة مثل التوقف عن التدخين أسهل عمل في حياتي، لقد فعلت ذلك مائة مرة على الأقل، أما لماذا أعود إليها بعد كل مرة أقول في نفسي هذه آخر مقالة في حياتي بعدما جنت علي هذه المهنة التشريد والحرمان والعزل وفقدان العمل والأصدقاء فذلك سر لا أفهمه.

استقلت من عملي في الكتابة عازما ألا أعود إليها مطلقا بعدما أغضبت كثيرين ويرون فيما أكتبه تخذيلا وإرجافا، وسافرت إلى الخليج للعمل في

التدريس، وكان يمكن أن أكون مدرسا محترما يعد الأيام والدراهم لولا موافقتي على عرض للعمل في النشر والتحرير في مجالات قصص الأطفال في الأردن، كان العرض معقولا، فالعمل في مجال الكتابة، واستجبت لهذا الحنين المرضي والإدمان الذي يقض المضاجع مقنعا نفسي أن الكتابة للأطفال لا تزعج أحدا ولا تسئ إلى أحد.

كان الأردن يشهد توهجا ديمقراطيا وحريات واسعة، وقررت الحركة الإسلامية أن تنشئ صحيفة أسبوعية «الرباط» ولم يكن الأمر يعنيني وحافظت على مقاومة إغراء الكتابة في الصحافة، ولكن القائمين على صحيفة الحركة الإسلامية «الرباط» وجدوا أنفسهم بعد إصدار خمسة عشر عددا من الصحيفة تعاقب في أثنائها ثلاثة رؤساء تحرير يواجهون توقف الصحيفة كأمر واقع بسبب التنافس إلى درجة التهافت على رئاسة التحرير من طامحين وطارئين وقادة ومسؤولين ونواب وأساتذة جامعيين وأئمة مساجد ومهندسين دون أن يكون لدى أكبر حركة سياسية في الأردن فريق إعلامي محترف، كان المشهد مثل كاريكاتير لعلي فرزات تتكدس فيه على المنصة عشرات الشخصيات تمسك بالميكروفون ويجلس في الصالة مستمع واحد، وللخروج من مأزق النزاع والتنافس، وأملا في تشغيل وتدريب فريق من الصحفيين فقد استدعي من كهفه شاب نحيف إلى درجة ما يشبه المجاعة يحلق لحيته في جو يتفجر لحى وحماسا.

وكان هذا الشاب الذي سافر خارج الأردن منذ عشر سنوات عندما كان فتى صغيرا لا يكاد يعرفه أحد، وإنما يتذكره بعض قادة الحركة

الإسلامية حين كان طالبا في المدرسة يشارك في أنشطة الحركة الإسلامية في أوائل السبعينات ويلتهم مئات الكتب ويكتب القصص ويخطب في المساجد والتجمعات.

وهكذا وجدت نفسي كمقاتل أعزل هبط وسط معسكر مدجج بالسلاح فقد انهالت علي منذ اليوم الأول سهام النقد والمحاكمة والتشهير، وكانت مقالتي «فلسفة الدموع والألم» الأولى التي نشرت في صحيفة الرباط مدرجة على جدول أعمال مجلس الشورى إلى جانب المشاركة في الحكومة، والعمل النيابي، وحرب الخليج، وعاصفة الصحراء، فقد كان مجلس النواب الأردني في ذلك الوقت يرأسه عبد اللطيف عربيات أحد نواب الإخوان المسلمين، وكان يضم في عضويته اثنين وعشرين نائبا من الحركة الإسلامية وعشرة نواب إسلاميين مستقلين، وكانت الحركة تشارك في حكومة مضر بدران بخمسة وزراء».

قرئت المقالة على أعضاء المجلس وهاجمها شيوخ ونواب وقادة، ودافع عنها آخرون وقرر المجلس إحالة كاتبها على المحكمة، وكلف عبد المجيد ذنيبات «المراقب العام فيما بعد» بمحاكمة الكاتب، لم تكن مقالة مهمة أو خطيرة، ولكن هاجس الإعلام وسيطرة الذات على البعض، وعدم احتمال الرأي الآخر تغير الأولويات والتفكير والحياة.

وفي الجدل الدائر في الحركة الإسلامية بين المشاركة السياسية وعدم جوازها، كان أعضاء في مجلس النواب المنتخب يرون حرمة المشاركة السياسية، ويطالبون بالالتزام بفكر سيد قطب والولاء والبراء، وكان

عاملون متفرغون في جمعية المركز الإسلامي بمكافآت كبيرة يتصدون لأي فكرة تدعو إلى مشاركة الحركة الإسلامية في العمل التنموي، وكانت مفارقة مضحكة مبكية، فلم يكن الجدل في حقيقته بين الأفكار ولكنه بين المصالح، ولم يمكن يمتنع أدعياء للتشدد والالتزام من فعل أي شيء ليظفروا بجمعية المركز وقيادة الجماعة وإفشال منافسيهم، قلت لأحدهم وهو عضو في مجلس النواب يصدر الكتب والفتاوى يحرم المشاركة في الوزارة ويتبنى مفاهيم يسميها إسلامية هي مفاهيم تكفيرية ترى المجتمعات والأنظمة القائمة جاهلية: ما الفرق بين المشاركة في مجلس النواب والمشاركة في الحكومة، قال: هناك فتوى بجواز المشاركة في البرلمان، أنا أفتيت بذلك، ولكن ليس هناك فتوى بجواز المشاركة في الوزارة، هكذا ببساطة فالحرام والحلال والجائز والممنوع هو ما يخبرنا به شخص حصل على شهاداته الجامعية كلها بالانتساب ومن جامعات يصفها بالجاهلية والكفر.

وشعرت أني غير قادر على مواصلة المشاركة، فتخليت عن الكتابة، واعتكفت في بيتي سنة كاملة، ثم عملت أمين مكتبة في وزارة الثقافة، واعتقدت أنني تخليت عن الكتابة الصحفية والاشتغال بها للأبد إلا ما كان قصة أطفال أو شيئا لا يغضب أحدا.

ولكنني ما لبثت أن وجدت نفسي منخرطا في الصحافة على نطاق واسع بعدما صدر قانون المطبوعات والنشر، وصار إصدار صحيفة أسهل من فتح بقالة أو محل تجاري صغير، وشاركت في تأسيس صحيفة

السبيل الأسبوعية وبدأت الصحافة اليومية المحلية والعربية تنشر ما أكتبه، وصارت الكتابة مصدر رزق ترتبت عليه التزامات ونفقات لم يعد التخلي عنها سهلا، وكانت الكتابة قبل ذلك هواية أو عملا عاما تطوعيا.

وتوالت المحاكمات التنظيمية والمضايقات الحكومية، فاستقلت من الوظيفة، وتركت الصحافة الإسلامية، وعدت من جديد أشتغل في قصص الأطفال، ونشرت عددا من القصص، ولكني وقعت مرة أخرى في حماقة الكتابة الصحفية عندما استجبت لعرض للمشاركة في تأسيس مركز للدراسات ومجلة ترأست تحريرها، وعادت اللعنات وأوجاع الرأس، ولم يعد لي مكان في الصحافة التي توقفت عن النشر لي بناء على اتصال هاتفي من مسؤول حكومي كبير حتى لو كتبت عن القهوة أو الصحراء أو بمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك.

«أنت أحد كبار قادة الجماعة، ومقالاتك ينظر إليها على هذا الأساس»، قال لي نائب المراقب العام للإخوان المسلمين في الأردن، كان ذلك بعد مقالة نشرت في صحيفة الحياة، وهكذا اكتشفت أني أحد قادة الإخوان المسلمين، وأني مخير بين الجماعة أو الكتابة، وكنت أحسب أنني كاتب في الصفوف الخلفية يملك رأيا خاصا به، ويقدر أن يوفق بين فرديته وانتمائه للجماعة، وبين إسلاميته وليبراليته، وجمدت عضوية ذلك القائد الكبير في الجماعة بعد تلك المقالة، في محاكمة طريفة، فقد استدعيت إلى محكمة تنظيمية تتكون من رئيس وعضوين، وكانت صحيفة المجد الأردنية الأسبوعية قد سبقت تلك المحاكمة بنشر خبر عن تجميد عضويتي في الجماعة.

كنت واثنين من أعضاء المحكمة نظن أن المحكمة عقدت للمحاسبة على مقالة لي نشرت في صحيفة الحياة، ولكن تبين عند بدء الجلسة أنها بسبب رسالة داخلية كتبتها إلى المكتب التنفيذي للجماعة، ولم يكن أحد من أعضاء المحكمة قد اطلع على هذه الرسالة من قبل ولا يعرف عنها شيئا، واستغرقت المحاكمة ثلاث دقائق، طلبت من هيئة المحكمة أن تحدد التهمة الموجهة لي، وأن تقدمها مكتوبة، وأن أجيبهم عليها كتابة، وهو التقليد المتبع في المحاكمات التنظيمية للجماعة.

ولم يجد رئيس المحكمة داعيا لذلك، ولم يكن يعرف ما هي التهمة الممكن توجيهها بناء على رسالة كتبت وفق أنظمة متبعة في الجماعة، وأما عضوا المحكمة فلم يكونا يعلمان شيئا، ولم يتدخلا بشيء، ولم يرغبا بإضاعة وقتهما في مناقشة لا فائدة منها، فالقرار كان معدا من قبل.

يعمل رئيس المحكمة وعضو آخر في المستشفى الإسلامي الذي يعمل فيه نائب المراقب العام للجماعة مستشارا شرعيا، وهو منصب وهمي افتعل لتبرير مكافأة مالية كبيرة، ولضمان سيطرة تنظيمية وإدارية على موظفي المستشفى وأعضاء الجماعة، وقد لقيت فيما بعد أحد طلاب الدكتوراه في الجامعة الأردنية، وأعلمني أنه قد يعمل سكرتيرا للمستشار الشرعي للمستشفى الذي لم يكن له ابتداء أي عمل. وهكذا انتهت علاقتي بالإخوان، على نحو يبدو أنه بسبب الكتابة الصحفية، وعندما أخبرت أحد أعضاء المكتب التنفيذي للجماعة بقصة المحاكمة أبدى استغرابه، وقال إنه لا يعرف عن الموضوع شيئا.

كنت على مدى السنوات الثماني التي سبقت انتهاء علاقتي بالإخوان قد كتبت عشرات المقالات عن الحركة الإسلامية، وألفت كتابا عن جماعة الإخوان المسلمين في الأردن لعله المصدر الحقيقي الوحيد عن الجماعة في الأردن، ولم يكن للكتابة تلك برغم ما تضمنته من نقد ومراجعة وبرغم الاختلاف الكبير بيني وبين قيادة الجماعة حولها أثر على علاقتي بالجماعة ومعظم قادتها، وكان من الممكن تحمل تلك الآراء والمواقف واستيعابها لولا الحديث عن مسألتين يفترض أنه لا علاقة لهما مباشرة بالإخوان المسلمين، وهما: الفساد المالي والإداري في جمعية المركز الإسلامي التي يديرها مجموعة من الإخوان، وتملك مستشفى ومدراس وكليات ومؤسسات تقدر بمئات الملايين من الدنانير، والحديث عن حركة حماس، والتي نجحت قيادتها السياسية والإعلامية في الخارج في تجنيد القادة السياسيين والتنظيميين والصحف والكتاب في الحركة الإسلامية وفي خارجها أيضا، فتجد نفسك محاطا بشبكة من الإساءات والتجريح والتشهير والحصار، ولا تجد قيادة الحركة الإسلامية أمامها من سبيل لإرضاء شبكة تهيمن على كل مفاصلها ومواقعها ومؤسساتها وقرارها سوى أن تقدم لها القرابين وتحرص على إرضائها، ومن أسهل ما يمكن فعله لتحقيق ذلك فصل كاتب من الجماعة ومن عمله أيضا.

واكتشفت بنفسي قبل أن أقرأ في «رأس المال» لكارل ماركس أن الحركة الإسلامية تنطبق عليها مقولته عن الكنيسة، فهي «أقرب إلى أن تغفر لك خرق ثمانية وثلاثين شريعة من شرائع عقيدتها التسع والثلاثين، من أن

تغفر مس جزء واحد من تسعة وثلاثين جزءا من مداخيلها، والإلحاد نفسه يعتبر هفوة طفيفة عند مقارنته بنقد الملكية القديمة»، فأنت في الحركة الإسلامية تستطيع أن تكون ما شئت، وأن تلتزم ما تراه من أفكار إسلامية ليبرالية أو سلفية، أو متطرفة أو معتدلة، أو مما يصنف في خانة غير إسلامية بشرط ألا تمس مصالح ومكاسب مجموعات وأفراد لا تمتنع عن عمل أي شيء يخطر ببالك أو لا يخطر لحمايتها، والواقع أن الخلافات والأزمات لم يكن مردها فكريا ولا سياسيا، ولكن الزملاء الأعزاء كانوا يجدون في الخلاف الفكري الذي يضخم ويبالغ فيه النفخ فيه تنفيسا عن معاركهم الشخصية وحسدهم وتكالبهم على الفرص والمغانم.

وربما يكون بيع الصحف على الإشارات الضوئية كما يفعل صبية تركوا مدارسهم أجدى وأكرم من العمل مع الحركة الإسلامية، ذلك أنك ستجد مطلوبا منك أن توفق بين رغبات خفية ومعلنة وعقد وأمراض نفسية شتى ومختلفة، وأنك في متاهة معقدة المسارات، ومحاطة بجدران من المرايا المستوية والمقعرة والمحدبة.

وبلغ الأذى والظلم والتشهير حدا جعل البقاء وسط الأصدقاء والبيئة السابقة مصدرا للعنت والنكد، وجاء الحل هذه المرة ليس في ترك الكتابة، ولكن بالهرب إليها.

***

تغيرت كثيرا، وجدت أني أعيد على نفسي الأسئلة الأولى التي كنت أحاور نفسي بها حين كنت فتى صغيرا وقررت المشاركة في صفوف

الإخوان المسلمين، كانت الأسئلة الأولى متعلقة بالدين والوجود والحياة، يقول كولن ولسن إن «اللامنتمي» بمعنى الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واهي، ويشعر بأن الفوضى والاضطراب أكثر عمقا وتجذرا من النظام الذي يؤمن به قومه، مشكلته في الأساس هي مشكلة الحرية، هو يريد أن يكون حرا، ولا نقصد بالطبع الحرية السياسية، وإنما الحرية بمعناها الروحي العميق، فيلجأ غالبا إلى الدين لأن جوهر الدين هو الحرية، وقد لجأت إلى التدين بالفعل بحثا عن الحرية والانعتاق، وجدت نفسي منجرفا في مسار كان أكثر متعة وسهولة، ولكنه لم يواجه السؤال الحقيقي، فوجدت نفسي في مواجهة السؤال مرة أخرى، وأني أمضيت ثلاثين عاما أدور حول نفسي، ربما كنت في ملاحقتي الدائبة النبيلة للسراب أجد الكثير من النتائج والإنجازات واللهو والتسلية، ولكني فقدت السراب أيضا، يجب أن تظل ظمآنا حتى تلاحق السراب، وعندما تجد بأنك لست ظمآنا تدخل في مسار آخر مليء بالخواء والأوهام، ربما تكون صحيح العقل ومتفائلا ومنسجما مع البيئة المحيطة بك، ولكن بفقدانك لهذا القلق الجميل تفقد الدليل أيضا، ثم تجد أنك تدير نفسك بقناعات زائفة من اليقين والطمأنينة والسعادة، وهنا أيضا تكون خطورة التدين عندما يصرفك عن الحرية.

وتكتشف بعد فوات الأوان أنك أخطأت في اختلافك عن الآخرين ومعهم، وإن كنت تواصل اعتقادك بصواب فكرتك وموقفك، ولكنه اكتشاف متأخر لا يمكن إصلاحه، فعندما تحاول أن تنتمي إلى المجموع لا

تجد لك مكانا، فلا أنت مستمتع بما أنت عليه ولا أنت قادر على ألا تكون غير ذلك!

كنت أعتقد أن الحركة الإسلامية هي الطريق إلى العدالة الاجتماعية، سيد قطب جر جيلا من الباحثين عن العدالة الاجتماعية إلى الإخوان المسلمين وهو أيضا ساقهم بلغته الرائعة وقدراته العظيمة في الفكر والتأثير إلى حالة غيبية من استعلاء الإيمان وحتمية العدالة والتقدم تلقائيا بمجرد تطبيق الإسلام، وبعد أن علمنا أن نبحث عن العدالة الاجتماعية علمنا أن هذا البحث هو مثل استنبات البذور في الهواء، وأنه قبل تحكيم الإسلام وتطبيقه لا مجال لعمل أو فكر يبحث عن حلول وأفكار تحمل الإسلام مسؤولية أخطاء الأنظمة الجاهلية وتطبيقاتها، صار للمرة الأولى مفهوم جديد للجاهلية، إنها ما ليس حكم الله، فالناس بين خيارين حكم الجاهلية أو حكم الله «أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون».

صحيح أن الإخوان المسلمين تجاوزوا هذه المفاهيم والأفكار، وخرج معظم الذين يحملون هذه الأفكار من الإخوان، وشاركوا في جماعات الجهاد والسلفية القتالية، ولكنها في الأردن بقيت مؤثرة على نحو ازدواجي فريد، فالكثير من أعضاء الإخوان المسلمين وقادتها يؤمنون بأفكار «التجهيل والتكفير والمفاصلة» ويشاركون في الوقت نفسه في الحياة العامة والسياسية كما لو أنهم لا يؤمنون بهذه الأفكار، وحتى أولئك الذين يؤمنون بالمشاركة السياسية والعامة مع المجتمعات والدول فإنهم لا

يبتعدون كثيرا وهم يدعون إلى دولة إسلامية، أو إلى ديمقراطية إسلامية، أو في محاولتهم لتقديم خطاب إسلامي جديد مؤمن بالحريات والتعددية والديمقراطية، كان هذا الاكتشاف بالنسبة لي بمثابة مراجعة جديدة وجذرية لمساري الفكري ولمبررات الحركة الإسلامية وأهدافها ورؤيتها المؤسسة أو الحاكمة لخطابها ومواقفها.

كانت مشاركتي في الإخوان من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية، وربما لأجل ذلك كان ثمة اختلاف كبير بيني وبين الإخوان، وحتى اليوم فإني أعتقد أن الاشتراكية تتضمن أفكارا ورؤى تصلح للمجتمعات والدول، وقد تهيأ للاشتراكية أن تقدم للعالم عددا كبيرا من المفكرين والأساتذة الكبار، ولكن الحركة الإسلامية تبدو فقيرة جدا في الإنتاج الفكري، ولديها عدد محدود من المفكرين، أهمهم بالطبع سيد قطب، وربما لم يأت أحد بعده، وليس لدى الحركة الإسلامية إجابات ورؤى كافية تقدمها لأعضائها وللمثقفين والناس، ليس هناك فيلسوف أو روائي بحجم كارل ماركس، ومكسيم غوركي، وغرامشي، وهوبز باوم، وربما تكون أهمية الفكر والمنهج بما يتهيأ له من فلاسفة وفنانين وكتاب وشعراء يقدمونه إلى العالم، وهذا لم يتح للحركة الإسلامية، ربما هي أقرب إلى الشعبية والعمومية، ولم تقترب من النخب والمفكرين والمثقفين.

ولذلك فقد كانت الحركة الإسلامية تستقطب الشباب الجامعيين ولكن الكثير منهم ممن يتقدم في الفكر والعلم والفلسفة وفي الحياة الثقافية والعامة لا يستطيع أن يواصل مشاركته فيها، ففي مرحلة من الحماس

والقلق والتطلع للعمل العام يكون التدين مناسبا لاستيعاب الشباب، هذا الشعور بالرضا والاطمئنان الذي يمنحه التدين لا يصلح بعد مرحلة من النمو الذهني والفكري.

في تجربتي كنت مشغولا بأسئلة الوجود، الخلق والكون والحياة، وبدأت ابحث عنها في الإسلام، وكانت الصحوة الإسلامية في منتصف السبعينات هي الأكثر حضورا، وكان إخواني الأكبر مني وبعض الشباب الجامعيين من الأقارب والمعارف مشاركين نشطين في الإخوان المسلمين، أو في حزب التحرير الإسلامي، كنت أقرأ وأناقش، لم أجد إجابات شافية ولكن وجدت الكثير من الراحة النفسية، الشعور بالارتياح والسعادة، نصلي ونقيم الليل مع بعض، نشارك في مخيمات تربوية، ونتحرك ندعو الناس، وتشكلت علاقات من الصداقة والمعرفة الجميلة والمؤثرة، لكن القلق الوجودي والبحث عن حلول فلسفية أو مشكلات المجتمع، كانت تبقى معلقة.

وفي المرحلة الجامعية كنت أوفق بين انتمائي للإسلام والبحث في الفكر الغربي والشيوعي، كانت الإجابة الأولى للأسئلة عن مثل هذه القضايا المؤجلة أنه لا يوجد دولة إسلامية، هذه مسائل تحلها الدولة الإسلامية، الآن يكفي أن ندعو إلى لإسلام، وبعد ذلك تحل هذه المشاكل تلقائيا.

وفي الخامسة والعشرين من عمري بدأت أعتقد أنه ليس هناك في الإسلام شيء اسمه دولة إسلامية، الإسلام لا يطرح نموذجا محددا للدولة، يمكن أن يقرأ الإسلام قراءة اشتراكية، ويمكن أن يقرأ قراءة

علمانية، أو رأسمالية، أو ليبرالية، كل الأفكار ممكن أن تجد لها تأييد في الإسلام، والتاريخ الإسلامي فيه نماذج متعددة من التطبيقات والمفاهيم التي كلها تنسب إلى الإسلام، لكنها في كثير من الأحيان متناقضة، ثمة نماذج مستبدة وعادلة وتبقى إسلامية، وأخرى متقدمة أو متخلفة، لكنها تبقى أيضا إسلامية، وهكذا فإنك لا تستطيع نزع صفة الإسلام أو حصرها بنموذج من النماذج القائمة والتاريخية في الدول والحضارات والمجتمعات، فأيها الإسلامي وأيها غير الإسلامي، والواقع أنها تجارب المسلمين وأفكارهم وليست الإسلام.

وبدأت تتشكل مع موجة الديمقراطية وموجة الحركات الإسلامية التي هبت على العالم الإسلامي محاولات لإنشاء «خطاب إسلامي ديمقراطي أو إسلامي ليبرالي»، وعندما بدأت حركات إسلامية في منشئها وفكرتها تتخلى عن «الإسلامية» ويعتبر أصحابها أنفسهم مسلمون وكفى، مثل حزب العدالة والتنمية في تركيا، بدأت مؤسسات غربية وعربية غير إسلامية تشغل نفسها بالخطاب الإسلامي، وتسعى في بلورة (كما تقول) خطاب إسلامي ديمقراطي، ودستور إسلامي، والواقع أنه اتجاه معاكس لم يعد يخدم قضايا الحوار الفكري والسياسي ولا يفيد أيضا في المشاركة (الإسلامية) في الحياة السياسية والعامة ولا دمج الحركات (الإسلامية) في العملية السياسية لأسباب ومبادئ أساسية.

فالمشاركة السياسية تقوم ابتداء على المواطنة وليس الانتماء الفكري، ومن ثم فإن نسيان مبدأ المواطنة والمشاركة القائمة على دفع الضرائب

وتحقيق المصالح أو تناسيه يخل بالعقد الاجتماعي للدول وعلاقات المواطنين بالسلطات والشركات وإدارة الخدمات والاحتياجات.

الديمقراطية نظام سياسي اجتماعي يتشكل حول مصالح الناس ومواردهم وتنظيمها والرغبة في حمايتها وتفعيلها وتطويرها، وليست أيديولوجيا تحشد الدعاة والمناصرين والمؤيدين والمؤمنين بها، فلا تقوم الديمقراطية على أساس الإيمان بها فكرة مجردة أو أيديولوجيا يجب الدعوة إليها والعمل لأجلها، ولا يحميها المؤمنون بها نظريا وفكريا والمقتنعون بصحتها وجدواها، ولكنها تقوم على أساس ارتباط مصالح الناس بها ولأنها منظومة تدير علاقات السلطة بالمواطنين والمواطنين بعضهم، وتتكرس عندما يقوم عليها التنافس على الفرص والموارد.

باختصار وبساطة فإن الرهان على الإيمان بالديمقراطية والتبشير بها أو الانشغال الفكري والسياسي بالتوفيق بين الليبرالية والديمقراطية وبين الإسلام هي عملية تنطوي على كثير من الاستثمار وخداع الذات وخداع الآخرين، أو هي في أحسن الأحوال تندرج ضمن جهود وأعمال من قبيل حماية الفراشات النادرة والسلاحف الزرقاء.

والدين بعامة وينطبق ذلك على الإسلام لا ينشئ أنظمة ومواقف سياسية واقتصادية محددة ولا يدعو إلى ذلك ولا يرغب في ذلك، ولكنه (الدين) مورد فكري وثقافي يمكن أن تحشده الدول والسلطات والمجتمعات والأفراد والأفكار لدعم مسارها واتجاهاتها التي لا ينشئها ابتداء ولكنه يتسع لها جميعها، من الحرب والسلام، والديمقراطية

والاستبداد، والمشاركة والفردية، والليبرالية والمحافظة، والعنف والتسامح، والحب والكراهية، والتعاون والتنافس، والتقدم والتخلف، والفشل والنجاح، وكذا في أنماط واتجاهات الحياة والجمال والطعام واللباس والعمارة، فكل نماذج التاريخ الإسلامي من الحكم والحروب والحضارة والفشل والتقدم والانتصار والسلام والتسامح والمذابح هي إسلامية، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، ولا يستطيع أصحاب فكرة أو نموذج أن ينفوا الإسلام عن غيرهم، والصحيح والمنطقي أنها تجارب وتطبيقات المسلمين وليست هي الإسلام.

خطورة هذا المنهج في نسبة الأفكار والبرامج والدعوات إلى الإسلام أنها تغيب الوعي الحقيقي لأجل المنافع القريبة، وتلبس على الناس دينهم وحياتهم في آن معا، وتكسر دائرة التقدم الاجتماعي والسياسي، لأنها في مرحلة من تطورها يجب أن تنشئ منظومة من الثقافة والفنون والفلسفة والأفكار تنشئ الموارد وتجددها وتحميها، وتظل إلى الأبد تعيد أصحابها إلى الخطوة الأولى وهواجس الشك والبحث عن الأفضل والأكثر صوابا، وهكذا يظل العقد الاجتماعي مصدرا للتقدم والتطور، ولكن تحويله إلى دين وأيديولوجيا يمنح أصحابه شعورا غير مطمئن بالاطمئنان وإيمانا زائفا بالصواب، لأنه (الصواب) ببساطة سراب نركض وراءه إلى الأبد، ولكنا في سعينا اليائس النبيل ننشئ الاختراعات والتقنيات والموارد والأساليب الجديدة للحياة والإبداع، ولنتصور لو تشكلت للبشرية عقيدة بصواب أجهزة مورس للتلغراف وعدم جواز تغييرها فهل كنا سنصل إلى الموبايل؟

عندما نضجت لدي الفكرة السابقة وجدت أني أبتعد عن الأصدقاء والمجموعة التي كنت أنتمي إليها في الإخوان المسلمين، وهم المعتدلون أو الإصلاحيون، فعندما كنت أسأل هل ندعو إلى تدخل الدول في الاقتصاد أم يجب أن تتركه للسوق؟ كنت أجد محاولات مثقفي الإخوان في البحث عن أدلة وشواهد من الكتاب والسنة عملية بائسة وغير مقنعة، لأنهم قادرون أيضا على أن يجدوا أدلة وشواهد لأي فكرة يؤمنون بها مسبقا، فالعلاقة بين الدولة والمجتمع، والحريات، والشورى، وإسناد السلطة إلى الأمة، كلها مسائل يمكن أن نجدها من مقاصد الشريعة الإسلامية، ولكن لأننا نريد ذلك وآمنا به أولا، فالإسلام مرجعية عامة، ولكن الفهم والتطبيق والصواب عملية إنسانية يعتريها التقدم والتخلف والصواب والخطأ.

وجدت أن فكرة الدولة الإسلامية هي فكرة وهمية أو غير محددة، فالعمل والإصلاح هي عملية يجب أنسنتها وليس تديينها، وهكذا فقد تكونت لدي قناعة بعد خمس وعشرين سنة من المشاركة في جماعة الإخوان المسلمين أنه لم يعد لي مكان فيها، وجدت نفسي مختلفا عنهم.

كنت أدرك هذا التناقض قبل سنوات طويلة، ولكنه بدأ شعورا ثم رغبة في الابتعاد والعزلة دون خروج تنظيمي، وقد فعلت ذلك بالفعل عدة سنوات، ولكن عندما تقدم المعتدلون في الانتخابات التنظيمية في بداية التسعينات وهم أصدقاء أعزاء وأمضيت وإياهم فترة طويلة من العمل المشترك والتفكير المشترك أيضا، وجدت نفسي منجرفا في مشاركة

قيادية واسعة معهم، في العمل الإعلامي والسياسي والتخطيط والتثقيف، والواقع أنها كانت تجربة عظيمة بالنسبة لي، أفدت منها كثيرا، وشباب الإخوان فريق أعتز كثيرا بصداقته وصحبته، وكنت أتمنى لو استطعت المحافظة على هذه الصداقة، ولكني للأسف الشديد لم أستطع أن أجمع بين الخروج من الجماعة وصداقة هذه المجموعة من الإخوان، كنت مدركا أن سأخسر صداقتهم، ولكني أيضا لم أكن قادرا على مواصلة عدم الانسجام الذي يقلقني، ولم أكن أيضا قادرا على نشر وتثبيت فكرة أننا مثل الحزب الديمقراطي المسيحي في ألمانيا، وأننا في خطابنا الذي نقدمه للإصلاح والحريات والتقدم لا نقدم نموذجا إسلاميا خاصا، ولكنه نموذج إنساني نلتقي به مع غيرنا من التيارات والأفكار، ولكن ذلك برغم بداهته بالنسبة لي كان يبدو صدمة كبيرة في صفوف الإخوان، حتى الأصدقاء المعتدلون والمثقفون منهم رفضوا المقولة قطعيا.

ما كنت أدعو إليه ليس بدعة اكتشفتها، فقد عرضه من قبل بحجة قوية علي عبد الرازق في عشرينات القرن العشرين في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، والتسمية الصحيحة للبرامج والأفكار والمشروعات والجماعات أنها خطاب «المسلمين» وليس «الإسلام» فهي تحاول أن تستوعب الإسلام، لكنها ليست الإسلام، ولا يستطيع احد ان يقول ان هذا هو الإسلام او هذا ليس الإسلام، ماذا نقول عن دول مثل إيران، والسودان، وتركيا في ظل العدالة والتنمية، وأفغانستان، والعراق الذي تحكمه اليوم الحركة الإسلامية، وحماس في فلسطين، والسعودية؟ أليست هي جميعا على اختلافها وتعددها إسلامية؟

والجماعات السياسية الإسلامية تعكس الحالة التي كانت تعيش فيها، هي جماعات سياسية واجتماعية قبل كل شيء، بدأت في نهاية القرن التاسع عشر تبحث عن الإصلاح وتدرس النموذج الغربي وتحاول أن تستلهمه، ثم كانت حركات استقلالية ومقاومة للاحتلال، واليوم هي حركات سياسية تنافس للوصول إلى السلطة والمشاركة فيها.

تكتشف بعد فوات الأوان أنك مخطئ في اختلافك عن الآخرين ومعهم، ولكنه اكتشاف متأخر لا يمكن إصلاحه، فعندما تحاول أن تنتمي إلى المجموع لا تجد لك مكانا، فلا أنت مستمتع بما أنت عليه ولا أنت قادر على ألا تكون غير ذلك

سقط غدا جعل

سقط غدا جعل .. مات شرقا بخرائه

الجعل صار حاكما للمدينة .. وأنفق كل موارد المدينة وجهود الأهالي في جمع الخراء.. صارت المدينة جبالا من الخراء ليسرح فيها الجعل ويمرح... الجعل يتجول في المدينة... وكل العربات والأرصفة مليئة بالخراء ليسبح فيه ساعة يشاء.. لا أحد يعرف اين سيقف أين سيتناول طعام الغداء والعشاء.. فوضعت كل امكانيات المدينة على أهبة الاستعداد ليجد حيث حلّ جبلا من الخراء!

كل أهل المدينة يعلمون أن الجعل يأكل الخراء الا الجعل يحسب نفسه غارقا في المسك والزعفران... ولكن أهل المدينة يتظاهرون بأنهم يرون الخراء مسكا وزعفران!!

الجعل مات فجأة بلا سبب ولا مقدمات، .. يا للخسارة على الخراء الذي صار المدينة!

المذراة

كانت المذراة تشدّني دائما بتصميمها الجميل، وأدائها المدهش،..

عندما تخرج القمح من التبن، وتكون شاهدا على النتيجة النهائية الجميلة للبيدر، .. حملتها معي إلى المدينة، ووضعتها على الحائط أمامي، كنت أتأملها دائما باحترام وإجلال، أستذكر بها أبي والقرية، تشعرني بأني لاجئ، فلم يعد لي مكان أنتمي إليه بعدما عجزت عن الانتماء إلى مكان آخر بعد قريتي المهجورة، ولم تعد لي حياة جديدة بعدما فقد حياتي السابقة، كأني متّ وبعثت وأرسلت إلى جهنم، أشكو لها غربتي وخيبتي، وكانت تمنحني شعورا بالنجاة من تأنيب الضمير والفشل والهزيمة.

كان ابني يظنها لعبة جميلة لأبيه غريب الأطوار!

وعندما متّ حزن ابني عليّ وظل وفيا للمذراة يحترمها ويقدسها

احتراما لذكرى أبيه، كان يبالغ في احترامها ومناجاتها، فاعتقد أبناؤه أنه يصلي لها.

بعد موت ابني صار أبناؤه يصلون للمذراة؛ إله أبيهم الجميل!

صار الناس يعتقدون أن المذراة تحمل السرّ العظيم الذي يساعدهم دائما على عبور الأزمات ويتعلمون منه الوفاء والعطاء، وينسبون التقدم والازدهار لهذا الإله.

حلم

تحلم، تستيقظ من الحلم، وتكتشف أنك كنت تحلم، ولكن تبقى اللحظة الأخيرة من الحلم حدثا واقعيا أبديا موصولا، ..

بعد قصة طويلة (ربما) وتجربة سيئة جدا وقعت في حفرة، قناة عميقة من تلك التي تحفر بجانب الطرق لتمديد الكابلات أو الأنابيب، كانت سقطة مؤلمة على ظهري، ورأسي أصيب بجرح مؤذي، ..استيقظت من الحلم وأشعر أني ما زلت ملقى في الحفرة العميقة المرعبة، وأحاول النهوض ولا أستطيع، سألت نفسي برعب وحيرة كيف لا أستطيع أن أنهض وقد انتهى الحلم، .. مرّ دهر طويل لا يقل عن ثانية من الرعب والعذاب الذي لا ينسى أبدا، لقد أدركت أني كنت في حلم، وأريد أن أنهض من الحفرة، ولكني أجد اني غير قادر، جسدي عاجز تماما كأني مشلول، ثم أشعر وكأن الحياة بدأت تدب في جسدي، وعادت إليّ الروح، وما زلت أحاول

أن أنهض من الحفرة، وكلما نهضت أجد أني فيها من جديد، خائف ألا تعود إلي الروح برغم أني مستيقظ.

حلمت أني أرحل كثيرا باحثا عن المأوى والطعام، وفي ترحالي كل يوم أترك متاعا كثيرا، حتى وجدت مغارة في جبل تصلح للمكث الطويل، لكن لحقني كل سقط المتاع الذي تركته!

قال لي مفسر الاحلام: ابحث عن مكان لا يمكن لسقط المتاع أن يصل اليه او يعيش فيه .. عراق في جبل أو طفّ غير مكتشف يكون الوصول إليه بالحبال، عمل لا يستطيع سقط المتاع أن يصبر عليه .. لا يمكن فهمه وإذا فهمه لا يستطيع أن يطبقه وإذا حاول أن يطبقه وقع على ظهره وانكسر عموده الفقري .. ليكن لك في حياتك بقرة ترعاها ..وازرع العنب والذرة لكن شغلك أن تزرع الزعفران، أو امكث في الناس ولا ترحل واعمل لهم ما لا غنى لهم عنه .. صيانة المنازل مثلا والأجهزة المنزلية والأثاث. لا ترحل كثيرا، أو ابحث عن حياة لا تحتاج فيها الا نفسك تعمل بنفسك ولنفسك وتعلم وتداوي نفسك بنفسك.

أقول لك لا تحلم .. وهذا أفضل ما تحصل عليه.. وإذا حلمت فلا تتذكر حلمك.. لا تأت إلي. أحلامك تصيبني بالخوف. تصير أحلامي، أحلم بها كل يوم ثم أحلم أني أذهب إليك لتفسرها.!!

غابة

هي غابة أعرفها، ولا يضيع فيها أحد، فالغابات في بلدنا بقعة محدودة

ونادرة، ولكن عندما كنت أسير مع أطفالي تفرقنا عن بعضنا وتباعدنا، ركضت بلهفة باحثا عن ابني الصغير، وتركت أطفالي الكبار، وعندما وجدته لم أستطع وسط الجموع المتدفقة أن أعود إلى أطفالي، وتوقفت بجانب الحافة الخطيرة كأنها الهاوية مؤملا أن يتوقف تدفق الناس، .. وما زلت أنتظر!

بحيرة

ليس لدينا بحيرة، من أين جاءت تلك البحيرة في المدينة؟، تحيط بها المرافق السياحية، وتؤمّها جموع كبيرة من الناس، نزلت ابنتاي لتسبحا في البحيرة، ولكنهما تعرضتا للغرق، نزلت إلى الماء وأنقذت الصغرى، حملتها وأحطتها بالأغطية، ثم رجعت أبحث عن الأخرى، ولم أجدها، لم تغرق، ولم تظهر، وناديت بأعلى صوتي وبكل ما في الكون من لوعة وحزن، وأعدت النداء، .. وما زلت أنادي!

سفارة

أسير أو أظن نفسي أسير في مجمع تجاري وترفيهي، أسير على سبيل التسلية والترفيه، أو لأجل متعة التسوق كما يحضّنا الإعلان التجاري للمجمعات، ثم أفضى الممر إلى مبنى تاريخي جميل ومغلق، كانت ثمة لافتة معلقة تقول: تعتذر القنصلية لإغلاق أبوابها اليوم.

عدت أدراجي، ولكني وجدت نفسي في مواجهة مجموعة من رجال

الأمن و«السيكيوريتي» (أمن قطاع خاص)، أتذكر الآن أن أخي الأصغر كان يرافقني، أظنه كان بصحبتي طوال الرحلة، كنا نسير معا ونتحدث كما نفعل عادة خارج القصة، سلطت علينا أجهزة الأشعة والتصوير، وأطلقت الأجهزة أصوات وأضواء ليزرية!!

جاء رجل بلباس مدني، اسمه أبو محمد (كيف عرفت اسمه؟)، صافحني مرحبا، قال: تفضل لنشرب معا فنجان قهوة فتكون الأزمة قد انتهت، هناك أزمة إذن! هل اقتحمت مبنى القنصلية؟ هل كنت أحمل شيئا محظورا؟ لا أعرف حتى الآن ما سبب الأزمة؟

ثم نقلت إلى الحجز، كان السجن مثل مبنى تجاري بمخازن لها أبواب معروفة للمحلات التجارية، (لعله سجن قطاع خاص) تلك الأبواب التي تطوى وتفرد، فتح أبو محمد أحدها كان قذرا جدا، ويتكوم فيه عدد من الناس ببؤس وإهمال، وفتح مخزنا آخر، ثم نظر إلى مجموعة من الشباب والصبايا، يشغلون مكانا مكشوفا ومليئا بالأسرة والمقاعد، طلب منهم أن يخلوا المكان لنجلس فيه، انسحبوا متذمرين، ثم أطلقوا قذائف من القيء باتجاهنا، وأصابني بعضها.

عندما جلسنا على الأسرّة (ننتظر حتى تنتهي الأزمة) وجدت أننا في مكان مطلّ على القنصلية، وكان المبنى مليئا بالموظفين والمراجعين و«السيكيوريتي»، وبعد قليل وضعوا أهدافا بيننا وبينهم واستعدوا لإطلاق النار، أطلقنا أصوات خوف واحتجاج، فأحضروا عددا كبيرا من العمال وصفّوهم بيننا وبين الأهداف لنطمئن ونتأكد أننا في أمان، ومازالوا

يطلقون النار، وأحمد الله اني لم أصب، .. ولكن يداهمني خوف متواصل، وانقباض مديد.

أسد صغير

كان أسدا صغيرا بحجم قطة صغيرة، على قمة شجرة عالية تبدو بلا نهاية في السماء، كأنها ناطحة سحاب، هل كنت هناك أيضا؟ أم أنني تسلقت لأجله، على الأغلب أنني كنت هناك، ولا أتذكر متى وكيف صعدت، دعوت الأسد إلي كما تدعى القطة، فجاء إلي، وضعته على ساعدي، ونزلت بهدوء وحذر، كانت رحلة طويلة، عودة من السماء مثل الهبوط المعقد، وحين وصلت الأرض أنزلت الأسد، وانطلق في سبيله، وبقيت واقفا مرتبكا متحيرا، لم أعرف هل أنجزت شيئا جميلا؟ هل علي العودة إلى أعلى الشجرة، وما زلت حيران مرتبكا،..

هناك أسد يفترس كل يوم واحدا من أهل القرية، .. هل هو الأسد الصغير الذي أنقذته؟

غدر

أسير في مبنى، .. في ممر مثل الكاردور، هذا ما أتذكره، كان ثمة باب مفتوح مواربا، فدخلت، وفور دخولي أمسك بي شخص مجهول من الخلف، وصرخت، ومازلت أصرخ، ولكن المجهول مازال مطبقا على عنقي، ويغمض عيني،..

حديقة ومقعد

يجلس الكاتب على مقعد في الحديقة ويقرأ في مجلة، يمر المدير العام لواحدة من الشركات العظيمة ومعه صديقه، يجلسان بجانبه على المقعد، يواصل الكاتب القراءة متجاهلا وجودهما، ولكنه في اليوم التالي فصل من عمله،..

الصحف التيتانيك

كانت الصحيفة عمارتين توأمين، إحداهما حديثة وفخمة، والأخرى قديمة متداعية، كنا نصعد إلى السطح نرافق رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، عقد اجتماع على السطح في قاعة اجتماعات تشبه مهبط طائرات الهيلوكبتر، وبعد الاجتماع ذهبنا لإلقاء نظرة على المبنى القديم، حاول رئيس مجلس الإدارة أن يمشى على حافة السطح لأنه كان الجزء القوي المتبقي من المبنى المتداعي الموشك على الانهيار، لا يكاد يقوى على تحمل أحد يسير عليه، وسقط الرئيس (رئيس مجلس الإدارة) ظننت أنه مات فورا، ولكنه نقل للعلاج، وكان في حالة خطرة، قيل إنه سوف يتجاوز الأزمة، ولكنه سيظل يعاني من إصابات دائمة، صار رئيس التحرير رئيسا لمجلس الإدارة،.. تبدو الصحف اليوم مثل سفينة عملاقة تمضي في المجهول، ربما تغرق، وربمـــا تنجـــو، وربما تواصل نجاحها غير المجدي..

صلاة

ذهبت إلى واحدة من قرى الشمال، تحمل إسماً آراميا، كنت مع رفاق لا أعرفهم، ثم ذهبنا لصلاة الجمعة، تقدم إمام للصلاة، كان شخص أعرفه موجودا في المسجد، هو ليس متدينا ولا يصلي ولا يصوم أبدا، ولكنه يرافق الإسلاميين ويبدو واحدا منهم أو صديقا لهم، تقدم للإمامة لكنه لم يؤمّ، الإمام شاب لا أعرفه، لا يحفظ شيئا من القرآن، توقف مرتبكا، يخلط في القراءة بين القرآن ونصوص عادية، جاءني يركض كنت أقف وراء جموع المصلين، أطلعني على ورقة أمامه ليعرف النصوص القرآنية من غيرها، ساعدته ومضيت، كان الوقت ليلا وأنا أسير في الطريق العام، على جانب الطريق، الناس مشغولة برغم الليل بجمع القش من بقايا الحصيد (العقير)،..

متاهة

لا بد أنها هي المدنية التي أعرفها وأتذكرها، بمتاهاتها وكآبتها، وشعور قاطنها بالضياع والضآلة، أركض متجها إلى مكان، أحاول أن أعرف وجهتي، أبحث عن البحر ليساعدني بمعرفة أين أنا، أتبين أنني صليت نحو الاتجاه المعاكس تماما للقبلة، أحاول ان أبرر بأنني بحثت عن جهة الغرب وقد حاولت أن أحدد الاتجاه عن طريق الشمس، ولكن يبدو أني لم اكن أعلم هل هي شمس الصباح أم المساء؟

ثمة بيت مليء بالغرباء بعضهم هنود، أحدهم يقرا في القرآن، ثم ينام

وهو ليس نائما، يعتقد أني نائم، .. أحاول ألا يعرف اني مستيقظ.

قبل ذلك أو في الأثناء، .. لا لا، هو مشهد مستقل، حلمت أني حلمت، ثم استيقظت وتبين أني كنت أحلم، .. مازلت أحلم، كل ذلك جرى في الحلم.

في البيت إياه، استيقظت، كان مقيم في البيت، الذي هو متاهة بالفعل، يتحدث مع اهله في مكان بعيد، لا يعرف كم الساعة، فيسألني، أجيبه بأنها الثانية إلا عشر دقائق، نظرت حولي متسائلا، هل هي الثانية ظهرا أم صباحا، وعندما لاحظت الشمس، قلت مكررا الثانية الا عشرة ظهرا، ثم اكتشفت وأنا أغسل يدي ووجهي أن الساعة متوقفة، لان النابض الذي يتحكم بالعقارب كان في غير موضعه الاعتيادي، أعدته فبدأت عقارب الساعة تتحرك بسرعة لتأخذ الوقت الصحيح، وبدأ الزمن المحيط نفسه يتغير، تحول الليل إلى نهار، حاولت أن أخبر الزميل بأني أخطأت، ولكني عجزت أن أجد الغرفة، تحول البيت إلى متاهة، .. ثم نمت، تعرضت لإساءة لم أقدر على وقفها، لاني نائم ومستيقظ معا، كنت عاجزا عن الحركة كأني مشلول، وعندما استيقظت تماما، كان الحلم قد انتهى، .. ولكني كنت منقبضا، عاجزا عن العودة إلى النوم مرة أخرى.

بانتظار النهاية

كنا نسير على غير هدى، نبحث عن طعام، ولا نجد شيئا، حتى أوراق الشجر أكلها الناس، وهم يسيرون في المدينة المدمرة المهجورة، كأنما أصابها

زلزال مدمر، وقررنا أخيرا أن نسير، نواصل السير حتى نجد مأوى، أو نموت، .. نسير بلا اتجاه، ولا أمل.

بطاقة ائتمان (كريدت)

أسير في مدينة أوروبية، لعلها بروكسل، فقدت نقودي، وحذائي أيضا فقدته، كنت أسير ببذلتي الأنيقة وربطة العنق، ولكني كنت حافيا، ثم وجدت نفسي في صالة، قاعة مليئة بالناس، أرضها موحلة وقذرة، كأنها مزيج من الماء وفضلات الحيوانات، خضت في الوحل القذر، عرفت من جموع الناس كاتب ومدير مركز دراسات يستثمر في المعونات الأجنبية، كان هو والآخرون ينظرون إلي على نحو واضح متسائلين ومستغربين لمَ أنا حافي القدمين؟!، كان يرافقني شخص واختفى، لا أعرف/ لا أتذكر إن كان هو من سرق نقودي وحذائي، وجدت المحفظة في جيبي وفيها بطاقة الائتمان، فحمدت الله وشعرت بالفرج لأني سأسحب النقود من الصراف الآلي وأحل المشكلة، .. ولكني عندما استيقظت من النوم عاودني الانقباض لأنه لا يوجد في رصيدي شيء يجعل البطاقة مفيدة!

الصمت

قرية مهجورة يصعب الوصول إليها، .. تأتي جماعات من العائلات بسياراتهم لزيارة عائلة وحيدة تعيش فيها معزولة، لكن سيدة البيت تصدهم، تطلب منهم العودة، تقول لا مكان لكم، يحاول أحدهم إقناعها بأنهم لا يحتاجون سوى الجلوس في أي مكان والسلام عليها، .. صفّ

السيارات الطويل يعود مرتبكا، الرجال يقفون في كل مكان منتظرين أن تغير المرأة رأيها،...

حادث مرور

صدمته سيارة صدمة خفيفة وهو يعبر الشارع، .. ذهب إلى الطبيب فأخرج من رجله قطعة خشب!

حدث يومي

يمضي في الصباح راكبا حماره، ويسير في شوارع البلدة، يترك المبنى غير المكتمل منذ عهد بعيد، ويمر بمكبس الزيت المهجور إلا من أطفال الغجر يلعبون في حرية وحبور، غير طريقه ليتحاشى صديقه الذي سئم من الجدل السياسي معه، وجلس على عتبة أحد المنازل القديمة التي لم يعد يبنى مثلها في القرية، .. الحمار بجواره تحول فجأة إلى رجل، وركب تراكتور صغير، لكنه لم يكن يحسن قيادته، صار التراكتور يسير في اتجاهات مضطربة مسرعا مرة وبطيئا مرة أخرى، .. شعر بالخوف وانسحب مسرعا مبتعدا عن المشهد.

في اليوم الثاني كان يسير وحده، لقيه رجل، ونطرا في عيون بعضهما بعضا بلغة لم يفهمها سواهما.. قال في نفسه هل هو الحمار؟ قال الحمار هل يعتقد أني حمار؟

اللوحة

صار البيت الذي أعيش فيه وسط سهول واسعة من المراعي والمزارع ليس بعيدا عن شاطئ البحر، وأمامه سفينة جانحة الى الشاطئ، تبدو مثل لوحات فنية شائعة لمثل هذه السفن الجانحة المهجورة، أسير في الطريق مبتعدا عن البيت، ويهاجمني كلب،...

الثور

هاجمني ثور ضخم بقرون هائلة .. وخطر لي أن أفضل مواجهة أن ألتصق بالأرض، جلست مقرفصا وأخفيت رأسي بين يدي .. لكن الثور عندما وصلني حملني على قرنيه وسار بي في هدوء ورفق .. جموع الناس والبقر فتحت له طريقا يسير فيه بينها وهو يحملني على قرنيه.

حكومة

الصف الطويل للمراجعين في دائرة حكومية،..

يحقنك طبيب أو شخص يرتدي معطفا أبيضا بحقنة لا تعرفها،

يخطر ببالك أنها حقنة تجعلك تابعا للحكومة!

الأصلة

تسللت أصلة هائلة من وسط البيت كما لو أنها مثل صرصور كان مختبئا في جحر صغيرة، ظهرت بصمت وثبات، وامتدت في فضاء الغرفة

ثم أحنت راسها كأنها تراقب وتهيمن، ثم عادت واختفت. استدرجتها للظهور والخروج من البيت بهدوء!

الهمس

يلتقون كل يوم مثل الأصدقاء، يتحدثون، ويشربون ويدخنون، يروون القصص والفضائح عن الغائبين من الأصدقاء، فإن حضر أحد الأصدقاء تحول إلى ملاك عظيم للخير والمحبة والتضحية والكفاءة والإنجاز، ثم شارك في التهام ضحية أخرى من الغائبين. وينتقدون في الظلام الفساد والبيروقراطية والظلم والتجاوزات وعدم الكفاءة، ويتحدثون في الضوء عن الإنجاز والتقدم والعبقرية التي عجزت عن مداناتها السويد وسويسرا.

الفنانة

كانت المسافرة التي تجلس في الصف المجاور لي في الطائرة واحدة من الفنانات اللواتي نراهن كثيرا في المسلسلات، .. تحدّث جارتها بصوت

مرتفع عن رحلتها إلى لندن، وتقارن بين العرب والبريطانيين، النظام والنظافة والعدالة والمساواة،..

عندما شرعت المضيفة في توزيع الطعام، بدأت بالمقعد التالي لها، فنادت المضيفة محتجة، سأكون آخر من يحصل على وجبته إذا بدأت بالمقعد الذي أمامي، فأعطيني وجبتي...

التهمت وجبتها، وتمددت مثل فقمة بحر، وفتحت فمها مثل تمساح وأخذت تنكش أسنانها، ثم مضت في نوم عميق، واغرقت الطائرة بشخيرها.

يحمله الأغنياء ويرميه الفقراء

تقرأ في الصحف عن الحملة التي يشنها العالم ضد البصق في الشارع والغرامة التي تفرض على من يقترف البصق، وتتذكر حملة مشابهة لسنغافورة قبل ثلاثين سنة، وترى كل يوم في شوارع وأرصفة المدينة البصاق يتطاير من نوافذ السيارات الفخمة الفارهة، ومن أفواه المشاة والجالسين، وتتذكر اللغز الذي علموك إياه في الريف القصي المنبوذ والمهمش عن الشيء الذي يحمله الأغنياء ويرميه الفقراء، .. البصاق.

تنمية وبرمجة

قال لي سأعلمك في خمس دقائق ما يدفعون مئات وآلاف الدنانير في تعلمه في دورات تنمية الذات والبرمجة اللغوية والعصبية، وستجد أنك

حزت النجاح والقدرة والتأثير في الآخرين والإبداع،.. وكل ما تعلمه ويقدمه الدعاة والمدربون الجدد.

لاحظت مرة وأنا أسير في الشارع أن نافذة المكتب مضاءة، أي يصدر عنها ضوء، فتوقعت على الفور أن الضوء في المكتب لم يطفأ، وبالفعل ذهبت وتأكدت بنفسي، وهنا يجب أن تلاحظ أنه لا يكفي التأمل والملاحظة النظرية، ولكن لا بد من التجربة والتحري والتعب، فقد تحركت بنفسي إلى المكتب وتأكدت من الضوء ولم أكتف بالملاحظة والنظريات كما يفعل البعض.

صحيح أن المكتب كان مطفأ وأن الضوء الذي رأيته هو من نافذة المكتب المجاور ولكن هذا لا يقلل من أهمية العمل والإنجاز العلمي.

واكتشفت طريقة نعرف بها هل السيارة التي تراها تتحرك أم واقفة، وذلك بالتركيز على عجلات السيارة إن كانت تدور أو لا تدور.

ويمكن أيضا الوصول إلى عمليات أكثر ارتقاء في التحليل والتفكير، فقد تبين لي أنك يمكن أن تعرف أيضا إن كانت العجلات تدور أم تتحرك إذا عرفت أن السيارة واقفة أم متحركة.

وعندما تكون السيارة متوقفة وليست متحركة فلن تستطيع أن توقف سيارتك مكانها. وطورت أيضا أدوات للقياس والمعرفة في أثناء ملاحظتي المستمرة للفرق بين الأمكنة المغلقة والمكيفة مثل المباني والعمارات وبين الشارع أو المكان المكشوف في الشمس والرطوبة، فدرجة الحرارة تكون في المبنى المكيف أقل من الشمس، والرطوبة كذلك تكون أقل.

سلطة السلطعون

لا تتجاوز خبرتنا في الأردن مع السمك سوى سمك مقطوع راسه، كنا نعتقد ونحن أطفال أن الآباء يقدمونه على المائدة عقوبة لنا، وأقراص لزيت السمك كان يفرضها المعلمون علينا في المدارس في تغذية إجبارية، تشبه ما يقوم به البوليس لمعاقبة المضربين عن الطعام في السجون.

ولكنا نقرأ كل يوم في صحفنا عن وصفات سلطة السلطعون والأطعمة البحرية!!

ابتسامة الطبيب

جاء الطبيب لزيارة المريض، .. هز رأسه، وابتسم، وقال مرحبا!

وجاء في فاتورة المستشفى: 120 دينارا أتعاب زيارة الطبيب!

ضابط الصف (الوكيل)

يستريح الجنود في فترة الظهيرة، وينتشرون في ساحة المعسكر ومرافقه وأطرافه لأداء أعمالهم الصغيرة، كان جندي مستجد، لعله في اليوم الاول له في المعسكر يسير في الساحة حافيا، ولقيه رجل كهل يملأ الشيب رأسه، قال له: يا بني، لا تمش في ساحة المعسكر حافيا، إذا رآك الوكيل فسوف تتعرض لعقوبة قاسية.

وفي الصباح حين اصطف الجنود بلباسهم العسكري وربتهم وأوسمتهم، اكتشف الجندي المستجد أن الرجل الطيب هو الجنرال قائد الفرقةّ!!

ملك الموت

بكى ملك الموت لما رأى امرأة وضعت أحد طفليها على ضفة النهر، ثم خاضت فيه تحمل طفلها الثاني لتضعها في الضفة الأخرى، وحين التفتت وهي في سط النهر رأت الذئب يعدو نحو ابنها، فألقت من غير وعي ابنها الذي تحمله في النهر، وعادت تركض لتنفذ ابنها الأول من الذئب، ولكن الذئب حمل الطفل وهرب، والنهر أيضا حمل الطفل الثاني ومضى بعيدا،...

وخاف ملك الموت، شعر برهبة عظيمة وهو يقبض روحي ملكين، أحدهما في الشرق والآخر في الغرب، ..

قال الله لملك الموت: هذان الملكان اللذان أرعباك، هما الطفلان اللذان بكيت لأجلهما!!

الدعاء المستجاب

اشتريت دعاء من شركة الاتصالات، دعاء مستجاب وبصوت مؤثر وتدمع معه العين، كما يقول الإعلان، وحصلت على دعاء آخر بنصف الثمن لشفاء المرض والعلاج من السحر، .. لكن عندما شكوت للقاضي بأنهم لم يستجب دعائي ولا شفيت من المرض سألني عن الكفالة التي تقدمها الشركة! وخسرت الدعوى.

البنك

قلت لابني البالغ سبع سنوات من عمره وهو يرافقني إلى البنك

لنصرف شيكا صادرا باسمه، سيسألونك في البنك عن اسمك واسم أبيك، فتخبرهم، فتساءل مستغربا وهل يوجد ناس في البنك؟ كنت احسبه كمبيوترا نستخرج منه النقود أو نضعها فيه.

كان جيلنا يروي قصصا عن الرجل الذي قال للمجيب الآلي في الهاتف حين دعاه للتأكد من الرقم، يا أخي، والله إني متأكد من الرقم، وأمي تسمي الاتصال الآلي الذي يدعو المشتركين لتسديد الفواتير «الغولة»

محبوب الجماهير

تمر سيارة سوداء فارهة مرتفعة، يطل منها شاب وسيم يحيي الجموع الخارجة من صلاة الجمعة، ويؤشر ملوحا لهم بيديه، معتقدا أنهم يعرفونه، وأنهم تجمعـــوا لتحيته، وينظر الناس بإعجاب إلى السيارة الحديثة الجميلة، ويتســـاءل كل واحـــد في نفسه لماذا يؤشر سائقها لي، كل واحد من المارة يحسب نفسه مشهورا لدرجـــة أن صاحب السيارة الجميلة يؤشر له محييا.

سلمى صديقة العالم

تبتسم سلمى لكل الناس، وتستقبلهم بحفاوة، وتمازح الزملاء والمراجعين، ويعود الرجال إلى بيوتهم وأعمالهم وحياتهم اليومية، كل واحد منهم يحدث أصدقاءه عن الصبية الجميلة التي تعشقه، ..وأنها ولا بد متأثرة بشخصيته الآسرة وثقافته الغزيرة.

البخيل

يمضون حياتهم في المولات والمعارض التجارية، يشترون كل ما يجدونه في السوبر ماركت والأسواق من طعام واحذية وملابس والعاب وموبايلات، يلقون معظمها في النفايات أو يكدسونها في البيوت بلا استخدام أو حاجة إليها، يزيد وزنهم، ينفقون بمثل ما اشتروا لتخفيف وزنهم، ثم يطرقون باب الجار، يطلبون استعارة مجلة العربي (ثمنها نصف دينار) ولأنه محتاج إليها بالفعل يعتذر، فيوسعه الجيران بالذم والنميمة والشتائم، .. الجار البخيل، الكحتوت!!

استماع

في إحدى روائعه يروي تشيخوف عن ذلك الحوذي المسكين الذي يتوفى ابنه ويحاول طوال النهار والليل أن يجد شخصاً يحدثه عن ابنه المتوفى، وفي كل محاولة يستمع بعد أن ينهي جملته الافتتاحية للشخص الذي يقابله «توفي اليوم ابني» يرد عليه الآخر في شأنه هو الذي لا يتعدى علف الدواب، أو المكان الذي يريد أن يصل إليه، أو حذائه الذي يقاوم البرد الشديد..

وأخيراً يذهب الحوذي إلى فرسه بعد أن ينهي يوماً طويلاً من العمل الشاق الممل فيقدم لها الشوفان، ثم يتحدث إليها (إلى فرسه): لقد توفي اليوم ابني، افرضي أن لك ابناً تحبينه، وأن هذا الابن توفي..

تواصل

كانت رائعة آرنست همنجواي التي أحرزت جائزة نوبل للآداب، وهي رواية «الشيخ والبحر» ليست أكثر من حوار ذاتي طويل، يحدث فيها رجل القصة نفسه على مدى أربعة وثمانين يوماً يمضيها في وسط البحر، وحين ينجح أخيراً في اصطياد سمكة تهاجمه الأقراش وتلتهمها، ولا يتبقى منها إلا هيكل عظمي هائل، وحين يعود إلى الشاطئ يتساءل سائح أمريكي عن الهيكل العظمي، فيجيبه الصياد بلغته الكوبية «تيبورن قرش»!! فيعتقد السائح أنه هيكل عظمي لسمكة قرش، وتعلق صديقته ما كنت أظن أن ذيل سمكة القرش جميل هكذا.. يقول الأمريكي وأنا أيضاً، فينسحب الصياد الذي يفشل في التواصل مع الناس حتى في رواية مغامرته إلى كوخه، ويكب على صحف قديمة يطالع أخبار مباريات البيسبول التي يعرفها وقرأها عشرات المرات..

هندسة الحوار

يجلس رجلان إلى طاولة في المكتبة العامة، أحدهما يعمل في المكتبة والآخر كان يعمل فيها وأحيل على التقاعد، وجلس الاثنان اللذان يفترض أنهما في غاية الشوق لبعضهما بعد غياب طويل أعقب زمالة عمل لا تقل عن عشر سنوات.

قال الأول لصديقه (الحديث كان بالعامية الأردنية بحيث يمكن أن يحدث الالتباس الذي قد لا يجده القارئ حين يقرأ الحوار بالفصحى)

أرسلت الولد للدراسة في روسيا (يتحدث عن ابنه هو) رد عليه صديقه: لا لقد أرسلته إلى قفقاسيا (يعتقد أنه يتحدث عن ابنه هو)

قال الأول: المهم روسيا أو غيرها أنا أقصد تلك البلاد التي كانت تسمى الاتحاد السوفياتي، ربما تكون أوكرانيا وليس روسيا (الحديث هنا عن ابن المتحدث في هذا الدور)

رد الثاني: متأكد أنه في قفقاسيا بالتحديد.

قال الأول: إنه يدرس هندسة ميكانيكية .

يجيبه الثاني: لا إنه يدرس هندسة كهربائية.

وهكذا استمر الحوار وكل واحد من الصديقين يظن أنهما يتحدثان عن ولد واحد.

هل تعرف بوتسوانا؟

ـ بوتسوانا؟ نعم أعرفها، فالقميص الذي اشتريته من سوق الجمعة مصنوع في بوتسوانا

ـ هل هي بعيدة عن غواتيمالا؟

ـ غواتيمالا؟ هل تصنع قمصان؟

ـ لا، ولكن البائعة في السوبر ماركت من غواتيمالا

ـ فهمت، إنها البلد الذي تعمل إحدى مواطناته بائعة سوبر ماركت، أليس كذلك!

الصيادون

شباب ذهبوا الى الصيد..

حملوا خراطيشهم ومضوا في الجبال .. ولكنهم لم يصيدوا شيئا، أفلت منهم الحمام والحجل، أحدهم صاد قبرة..

وأووا بعد رحلة طويلة إلى سيل الماء، ليرتاحوا ويشربوا.. كان ثمة كهف مظلم رطب مليء بالخفافيش، العشرات منها،..

وقف الشباب على مدخل الكهف وصاروا يطلقون النار من خراطيشهم بالجملة، يسقطون الخفافيش بأعداد كبيرة ويستمتعون بالمشهد، الخفافيش تسقط ميتة أو جريحة، ويجرفها السيل!

بطل

مات أحد الأبطال

كان ذلك أفضل عمل قدمه الى الحياة

إضافة بالطبع إلى الغاز الطبيعي وما كان يقدمه عندما يذهب الى التواليت

الطفل الذي رأى الملك عاريا؟

تتوقف القصة عند انفراط اللعبة المتواطأ عليها بإعلان الطفل أن الملك لا يلبس شيئا. ولكن ما الذي حدث للطفل بعد ذلك؟ .. تؤكد الروايات غير المكتوبة أن الطفل كرهته الاوليغارشيا والحاشية المحيطة بالملك، ..

وطرد من المدرسة لأنه لم يحضر معه قلم رصاص، وصار يبيع علكة على الإشارات .. وأخيرا دعسه صهريج نضح!

مواطنون

كان مواطنون يعيشون في الجبال والمتعزلات .. لم يزرعوا ولم يفلحوا أرضا .. كان قوتهم مما تجود به الطبيعة وبنادقهم أو ما يمكن الحصول عليه بالخاوة أو السرقة .. أو الصيد .. وعندما سجلت الأراضي في بداية تشكيل الدولة الحديثة سجلت بأسماء الذين كانوا يزرعونها .. ولم يسجل بأسماء المهمشين والمتهمشين شيء منها، .. ثم وفيما بعد ربما بعد أكثر من خمسين سنة عندما احتاجوا الى جوازات سفر ووثائق من الدولة لم يجدوا شيئا يدل على مواطنتهم، .. فقد كانت الوثائق الأساسية وربما الوحيدة في اثبات المواطنة هي وثائق ملكية الأرض (قوشان)، ومن لا يملك قوشان كان يصعب أو يتعذر عليه اثبات مواطنته...

وكان من حسن حظ بعض المهمشين أنهم سجنوا في أثناء المطاردات والمداهمات التي كانت تقوم بها قوات السلطة لفرض النظام ومطاردة

الخارجين والمزعجين للسلطة والمواطنين .. كانت وثائق السجن في الثلاثينات الدليل الوحيد لبعض المواطنين ليثبت مواطنته، ويحصل على جواز سفر!

قصة ليس لها مغزى: أخت زفت الدولة

قال ابن مسكويه في كتاب «تجارب الأمم» (القصة بصياغة حسين مؤنس في باشوات وسوبر باشوات) حكم بغداد في القرن الرابع الهجري رجل فاسد من البويهيين، وعين كبير قطاع الطرق رئيساً للشرطة في بغداد، وكان يتقاسم مع اللصوص ما ينهبونه من الناس، واشتدت مصيبة اللصوص على الناس والبويهي يتعامى ويتصامم.

وفي ذات صباح خرجت أخت الحاكم في جواريها وخدمها إلى الحمام، وتأخرن فيه حتى مغيب الشمس، فإذا كن في طريقهن إلى القصر كبسهن اللصوص ونهبوا الجمل بما حمل، ووقعت أخت الوالي في المغنم وطلب الحاكم إلى شريكه اللص أن يعيد إليه أخته وجواريها فلم يستطع، فما كان من الحاكم البويهي إلا أن أعلن أن أخته لم تخطف ولم تختف، بل هي لم تكن في الرفقة أصلاً، وهاهي ذي في دارها مصون ومعززة مكرمة، فلما سمعت أخت الوالي ذلك أعماها الغضب على أخيها، وكانت قد وقعت في يد لص زنيم يسومها الخسف، ويصر على أن ينزلها دار البغايا، وبلغ غيظها من أخيها الذي أماتها بالحياة أن استجابت لما طلب منها اللص، وصارت تبذل نفسها للرجال وتقول: أنا أخت زفت الدولة، فتهافت عليها أهل

الفسق، ووجدت نسوة الدار أن هذه الدعوة تجلب المال فصارت كل منهن تقول إنها أخت زفت الدولة.

ويكمل القصة أبو حامد الغرناطي في «تحفة الألباب» فيقول إن البويهي عندما دبر قتل أخته لم يستطع لأن كل بغي في البلد تدعي أنها أخت الحاكم البويهي، يقول أبو حامد: فلم يبق في بغداد داعر إلا أصاب من شرف الوالي الخسيس بالحقيقة أو الوهم.

مصباح علاء الدين

قلت لحارس المصباح حلمت ان الأولاد والبنات يذهبون إلى مدارسهم مشيا على الأقدام يحملون ألواح الكترونية وقيثارة.. أحلامي بسيطة، سخر منها العملاق المختبئ في المصباح، قال هذا حلم بسيط، يمكن أن تطلبه من غيري؛ المهدي المنتظر على سبيل المثال، فأنا للمهمات الأصعب!

في اليوم الثاني جاءني حارس المصباح محبطا يتصبب عرقا، قال لقد أزلت جبالا وأحضرت كنوزا من أعماق البحار وطفت العالم في لحظات قليلة ولكن حلمك اعياني وأعجزني اكثر من أي حلم آخر.. أنت عارف شو معنى حلمك؟ شو رح يصير في العالم لمّا الأولاد يكونوا قادرين على الذهاب الى مدارسهم مشيا على الأقدام وعلى كتف كل واحد قيثارة وفي حقيبته لوح ؟

أرصفة آمنة وملائمة للمشي لا تقتحمها سيارات، يعني أحياء وشوارع وطرق وممرات اخرى مختلفة عن هذه التي في مدينتكم، ومدرسة في كل حي، ولا يذهب الأولاد الا الى مدرسة الحي الذي يعيشون فيه، تخيل معي عندما تختفي المدارس الخاصة وباصات النقل البرتقالية وباصات الكيا وتقل الحاجة الى السيارات الخاصة،.. سوف تنقرض طبقات واسعة قائمة على التعليم الخاص والسيارات وقطع الغيار والباصات والمحروقات انت عارف كم يذهب الى المجهول بسبب كل ليتر بنزين او ديزل او غاز يجري استهلاكه؟ سوف تلحق ضررا كبيرا بعمليات اقتصادية واسعة سوف تختفي طبقات اخرى حتى أني حارس المصباح لا اجرؤ على البوح باسمها او المساس بها، وسوف تنشأ قيادات اجتماعية جديدة غير مرغوب فيها لأنها سوف تقود مصالح الناس وأعمالهم .. يعني حضرتك تحكي عن معلمين جدد ومهندسين جدد وأطباء جدد ومحامين جدد نواب جدد وأعيان جدد ووزراء جدد، وأسواق جديدة وسلع ومنتجات جديدة، .. سوف تتبخر هذه الأسواق والوكالات التجارية القائمة .. يعني سيكون اعمال جديدة ونخب تجارية واقتصادية جديدة، .. أقول لك العب قصدي احلم غير هيك، ترى أحلامك قصدي لعباتك مكشوفة، ... او شوف حدا غيري والله هاي أحلام ما يقدر عليها حتى ذو الشرى .. يمكن «بعل» جرّب جرّب ما بدي اقطع نصيبك، لكن أني منسحب.. على فكرة حتى سولافة الغابة اللي بتظل تهوجس وتحلم فيها إنساها لأنها أصعب من حلم مدارس الأولاد!!

طفولة

قال لي ابني الصغير: اشتر لنا يا بابا سيارة، قلت له: لا أملك النقود، قال: ولماذا لا يمنحنا الكمبيوتر نقودا؟

أفعى

يسير الطفل وحده خائفا في الجبال والأودية والقفار، تهرب منه عندما اقترب منها أفعى هائلة تبدو قادرة على ابتلاعه، واختفت مذعورة مسرعة مثل البرق، وقف في مكانه متجمدا غير قادر على المشي!

كاريكاتير

حين رأيت للمرة الأولى كاريكاتيرا في الصحيفة، وكان عمري ست سنوات ظننتها كائنات حقيقية تعيش بيننا على هذا الكوكب، وكنت أسير

مرة لوحدي في جبال موحشة مشحونة بالذكريات والأحداث والحروب والنزاعات الأهلية، فرأيت من بعيد كائنا أو شيئا يجلس تحت شجرة الفقيرة، فرجعت إلى البيت الذي يبعد خمسة أميال أركض خائفا مذعورا، وأخبرت الكبار أني رأيت كاريكاتيرا يجلس تحت الشجرة، ولكن أحدا لم يأخذ كلامي على محمل الجد، ولم يكن لدى أحد مزاج حتى للضحك مني، ثم عدت برفقة أخي الكبير، ومررنا بالشجرة، كان الكاريكاتير مازال يجلس تحت الشجرة، يدخن وبجانبه حماره، رافقنا في الطريق حتى وصلنا البلدة، ..

اليوم وبعد خمسين سنة من الحادثة، وأتذكر كلام الرجل وسلوكه، ما زلت أعتقد وبإصرار أنه كاريكاتير!!

صراف آلي

قالت الطفلة الصغيرة لأبيها لماذا لا تحضر صرافا آليا إلى البيت، ليعطينا النقود كلما احتجنا إليها.

السؤال

الطفل يمضي منطلقا/ تائها في السهول والتلال

يراه الناس يلعب

يعتقد أنه يمارس الحياة

الشاب الغريب العابر يقف خجلا مترددا بجانب أحد البيوت

يتساءل الطفل لماذا يخجل الناس من بعضهم

طلب الشاب من الطفل أن يحضر له كوبا من اللبن وأعطاه درهما ليعطيه لأهل البيت ثمنا للطعام

رفض الناس الثمن

ورفض الشاب أن يأخذ اللبن بلا ثمن

واكتشف الطفل أنه يمكن أن يحظى بالمبلغ الذي كان في ذلك الوقت الموغل في القدم ثروة طائلة، ودون أن يعلم أحد.

نسي الطفل الدرهم، وسقط من جيبه،.. واكتشفت القصة، وتلقى عقوبة قاسية

اكتشف الطفل أهمية النقود، وتعلم حياة الناس، ونسي حياته،..

ومنذ ذلك التاريخ وهو يبحث عن النقود، .. بيأس وإصرار، .. ولكنها مثل سراب لا يمكن الوصول إليه.

لماذا يكرهوننا؟

تتجمع الأفاعي في حفر عميقة تمضي الشتاء البارد الطويل في الجوع وصراع البقاء

وحين يطل الربيع تخرج من أعماق الأرض كأنما تعيد تمثيل البعث والنشور

تنتشر في الأرض جائعة مرهقة خائفة

ولكنها تموت بالجملة، ينقض عليها الناس بحقد وفخر واستمتاع

ودون سبب معروف للحيات على الأقل، فهي لم تقتل أحدا من الناس إلا دفاعا عن النفس، وهي قصص قليلة جدا

تتساءل الأفاعي: لماذا يكرهوننا؟

المقهى

يوم الدستور

في مساء اليوم الذي سلمت فيه اللجنة الملكية المكلفة بمراجعة الدستور توصياتها إلى جلالة الملك، كان المقهى مزدحما بالرواد لدرجة أنك لا تجد مقعدا واحدا تأخذه وتجلس على الرصيف، صفّت المقاعد مثل قاعة محاضرات لمشاهدة التلفاز، .. ثم اهتزت المدينة بالهتاف والتصفيق وأغلقت الشوارع في مظاهرات عارمة، .. احتفالا بانتصار برشلونة!

سيدة

تجلس في المقهى سيدة محجبة وبالغة الأناقة، وحيدة، تدخن وتشرب العصير، .. ثم مضت.

صبية

تجلس في المقهى صبية جميلة توفر قماشا كثيرا في ملابسها، كانت مستغرقة في موبايلها حديثا وكتابة، .. وتشرب البيرة!.. ثم مضت

صديقان 1

يجلس في المقهى صديقان، شاب وصبية، الفتاة التي لم تكن تغطي شعرها صائمة، وتنتظر أذان المغرب، وصديقها يشرب البيرة، .. كان يبدو من حديثهما أنهما في مرحلة التعارف، وربما يكون هذا لقاؤهما الأول.

صديقان 2

جاء كل واحد منهما إلى المقهى بسيارته المرسيدس، رجل خمسيني يرتدي بذلة وربطة عنق، وسيدة خمسينية أنيقة، مازالت تحتفظ بجمالها، .. يجلسان بعيدا يتحدثان، وتمتد يد الرجل خلسة وعلى خجل تداعب شعر السيدة!

صديقان 3

جلس في المقهى شاب وفتاة منقبة، الفتاة تجلس مقابلي، ويقابلها رفيقها الذي لا يراني، شعرت أن الفتاة تنظر إليّ، وتساءلت هل تعرفني، بدأ رفيقها يدير رأسه وينظر إليّ شاعرا بالحرج/ الذنب، أو كأني عرفتهما، لا بدّ أنهما يتحدثان عني، يكرر إدارة رأسه ناظرا إليّ، .. ثم انسحبا من المقهى مرتبكين!

صديقتان 1

تملأ فضاء المقهى صخبا ومرحا صبيتان تحتضنان بعضهما بحميمية جريئة

صديقتان 2

تجلس فتاتان إلى طاولة تتحدثان بهدوء، تشي طيور السماء بأنه حديث راق وجميل، تشربان النبيذ الأبيض، ترد إحداهما على الموبايل، كان المتحدث على الطرف الآخر والدها، (قالت أهلين بابا) وختمت المكالمة مستوضحة إن كان يريد أن تحضر معها نبيذا أحمر أم أبيض!

الكل باطل .. وقبض الريح

تساءل ابني الصغير بدهشة وغضب، كيف تقول ليس معك نقود وانت تعمل؟ هو الشغل ما بجيب فلوس؟ نعم إنه سؤال حقيقي وموجع، لماذا لا يخلصنا العمل من الفقر؟ فمعظم الفقراء في الأردن يعملون، لم يعد العمل حلا لمشكلة الفقر، والمشكلة ليست فقط في الفقر مع العمل، ولكن في فقدان ثقة ابنك، شعوره بأنك فاشل وعاجز، وإذا أضيف هذا الفشل إلى الفشل المتكرر في الإجابة على أسئلته التي لا تنفد، مثل ماذا سيعمل زين العابدين بن علي بعدما بطّل رئيس؟ ولماذا تتحدث المذيعة بهبل شديد؟ وماذا كان قبل اليوم الأول؟ نحن فقراء أم أغنياء؟ لماذا نذهب إلى المدرسة؟ وقبل ذلك الفشل في مشاركته في ألعاب البلاي ستيشن؟ ومجاراته في العاب الكرة والمكاسرة والمصارعة، واستغنائه عني بـ غوغل، تصبح باعتبارك أبا أو رب أسرة موضع مراجعة استراتيجية، وربما تبدو

كائنا غير مفهوم أو غريب الأطوار! وربما تثير حزنه وشفقته، فيحاول أن يسليك ببعض الألعاب والألغاز.

يوم أمس كان محزنا ومليئا بالانقباض بعدما استيقظت من النوم دون أن أحسم الخلاف مع صاحب سيارة فوكس فاجن قديمة ضربتها سيارتي ضربة خفيفة، وبرغم أن الضربة الجديدة لم تضف شيئا إلى سيارة الفوكس المليئة بالرضوض والكدمات من قبل، فقد أصر صاحبها على أن سيارتي مسؤولة عن كل ما أصاب سيارته،.. ولكن الانقباض مصدره أن السيارة كانت تسير وحدها، تحركت وحدها وطافت الضاحية وتجولت في أنحاء المدينة وعادت بدوني، يعني أن الوظيفة التي كنت اتميز بها «قيادة السيارات» وتوصيل الزوجة والأولاد وإعادتهم إلى البيت أصبح ممكنا أداؤها بدوني، ولم يعد لي لازمة، يصبح دوري فقط دفع أخطاء السيارة المتمردة الذكية، مثل بقرتنا التي كانت تتسلل في الليل خلسة إلى الحقول وتوقعنا في مشاكل قضائية وعشائرية!

لم تنقذني اليقظة من النوم واكتشاف أن ما حدث كان في عالم الحلم والماورائيات، فقد أصر العقل الباطن «والأشياء كما يقول انشتاين تفهم كما تدركها الحواس» على أننا باعتبارنا كائنات نحسب أنفسنا اذكياء نتعرض لتحديات قد تحل مكاننا غيرنا، .. صحيح أنني تناولت في السحور وجبة دسمة ونمت، وربما تكون المسألة كلها عسر هضم، ولكني أيضا كنت أقرأ في سفر الجامعة في التوراة ما جعلني لا أركن إلى أن «السالفة» مجرد حلم.

الحارس والسيدة

السيدة الواقفة في الحقل على حافة الأفق ..

ألهمت الحارس أجمل القصائد والمعاني ..

في وقفتها الشامخة ورقصتها الثابتة كأنها تصنع السنابل،..

كأن الكِبر في وقفتها يحلّ الجمال في الكون،..

وحين يأتي الهواء من جهتها يأتي بعطر صنعته الآلهة لأجلها ..

وحين احترق الحقل واحترقت معه عرف الحارس أنها لم تكن سوى فزاعة، ..

لكنها بالفعل فزاعة جميلة تستحق ما كتبه الحارس!

الخائن

أعدم الخائن واحتفل الناس فرحا بإعدامه ..

كانت الحرائق تشتعل دائما في الغابة وتهب إدارة المدينة ومعها المتطوعين لإطفائها .. وتجري كل يوم احتفالات بالأبطال الذين يطفئون الحرائق.. ويجري تكريم الشهداء الذين قضوا في أثناء العمل

ولكن الخائن تسلل في ليلة مظلمة إلى خزان الوقود الذي يتسرب منه الوقود فتشتعل الحرائق وأوقف التسرب!

عندما اوقف الخائن تسرب الوقود وتوقفت الحرائق أصاب المدينة ركود واوقفت الميزانية المخصصة للحرائق وسرح عدد كبر من العاملين .. ولكن أخطر ما أصاب المدينة الانقسام الاجتماعي والفتن الطائفية والشجارات العشائرية والخلافات السياسية .. ثم عندما قبضنا على الخائن عاد الاجماع السياسي والوحدة الوطنية، وعادت الحرائق، .. والسياحة أيضا ..

نجمة الشمال

قال الملك إني أرى في المنام عاشقين؛ عاصفة وشجرة ملول. سيارة بورش وشاحنة تجر وراءها مقطورتين. هارب من الألم وهارب اليه. سنونو تهاجر وتغامر بحثا عن الضوء والدفء. وبومة لا ترى ولا تعيش الا في الظلام والعزلة. حارس راصد وباب لله مشرع للقادمين والمغادرين. طريق للشمس وطريق لنجمة الشمال. فراشة تحسب نفسها نارا، ونار تحسب نفسها فراشة.

قال الدرويش هذا ليس حلمك يا سيدي.. لكن تريد العاصفة ان تكون شجرة. وتريد الشجرة ان تكون هباء منثورا. يبحث المؤمنون عن الحب في الطريق. وتمنحهم الطريق زينتها وكنوزها فلا يلتفتون إليها. . يبحثون أبدا عن السراب. يحب العاشقون انفسهم. لكنهم لا يجدون ذاتهم الا بين يدي من يحبونهم. يبحث السالكون عن الدليل. ويبحث

الدليل عن السالكين. يبحث المريدون عن المعرفة ولا يظفرون بها. ويضع العارفون معرفتهم في الطرقات. ولا يجدها أحد .لا المعرفة صارت حكمة ولا الحكمة ادركها أحد

محبان لا يلتقيان .. هي تصير في الليل حمامة. وهو يصير في النهار ذئبا.

قال الله: عرف الملك. ولم يعرف الدرويش لكن مشيئتي هي ما أراد الدرويش.

قالت الريح: لن تعرفوا الا بالحزن.

قال الشاعر: اضغاث احلام. ما بالكم كيف تحكمون. ليس التلمود فيسبوك. لا قصة فيه ولا حلم ولا عيون.

قالت نجمة الشمال: الحزن هو الا تكون حين هبط الغروب جالسا على الحظير الشمالي تشرب قهوة سادا اختصت السماء بها واحدا دون سواه. والضياع هو انها قهوة رحلت معه إلى السماء. لست سوى وحيد وغريب.. لم تكن مع الطيور العائدة قبل الغروب الى بيوتها مسرعة متلهفة بأصواتها التي مثل تراتيل حزينة. والأمكنة قاسية. والأماسي موحشة .

قالت الطريق: مرّت السيدة في طريقها بالدرويش في صومعته. وسالته فأجابها. ومضت. لكنه صار متشردا. لا الدرويش ولا المتشرد ولا صاحب الدير ولا صاحب القلعة ولا صاحب الخان يعرف من أفضل او أسعد من الآخر. السعادة مصدرها نجمة الشمال. لكن نجمة الشمال لا تمنح السعادة إلا للسالكين في الطريق.

قالت نجمة الشمال: الحب في طريق الشمس أسرة واولاد، والتزام وخيانة، وحسّ جميل وفج، خوف وبقاء وارتقاء، وفي طريق القمر حب للمعرفة والفنون، مشاركة وتعاون وزمالة وجيرة، .. وقليل من الأصدقاء، عمل وحسد وكيد وألم وإيلام، يعمل الناس معا ويفكرون معا فيحبون ويكرهون ويتنافسون .. ويتناكحون، وفي طريق الزهرة حب لأجل الجمال. جمال الروح والنفس والجسد .. كثير من العقل والمتعة أيضا، المتعة لذاتها. والعقل لأجل المتعة وإدامتها والارتقاء بها. وفي طريق نجمة الشمال حب الحكمة. يجمع السالكين حب الحكمة. يحبون بعضهم لأجل الحكمة. ويعين بعضهم بعضا لأحل الحكمة .. وفي ذلك قليل من المتعة واللهو. لكنه فقط للاستعانة على الطريق!

قال الملك للحكيم أريد حكيما مثلك لا يكون أنت

قال الراوي: بعد الخمسين لا تشرب القهوة مع الحليب ولا مع الكوفي ميت. خذها مرّة صافية نقية.

الطريق

حين تعانقتا؛ العاصفة وشجرة الملول. قالت الريح حان الوقت لانتهاء اللانهائية سأمضي منذ اللحظة في سكون ابدي. وقالت الملولة جاءت لحظة الانعتاق. سأكون هباء منثورا. لم تنثر الريح الشجرة ولا سكنتها. هدأت السماء قليلا ومنحت الطريق كثيرا من اللآلئ. وسلم الانبياء على الريح والشجرة.!

الحارس

يجلس بعيدا في حانة الطريق كأنه تمثال

يجلس كل يوم في الصباح وفي المساء. ينظر في لوحه ويدون

العابرون...يمرون ويرحلون

عابر جميل لا يمكن نسيانه

صاحب ثقيل

كأن رحيله افضل شيء عمله

ونسيانه اجمل شيء فعله

لا تعلم عن مروره ولا عن رحيله

لكنه ينقش في أعماقك شيئا لا تدركه

عابر حزين مثقل بالهموم

لم يلتفت إليك ولكنه تركك مشغولا به الى الأبد

ليس جميلا ان يكون قدرك حارسا في الطريق

ليس حزنا ان تشغلك أحزان العابرين

تواسيهم. تحميهم. تؤنسهم. تسليهم. تساعدهم. تستمع اليهم. تبتسم دائماً

لكن صمتك وحزنك ربما يفقدك عملك

لا حق لك بالغضب ابدا

الخواء

عندما عاد الناسك إلى الجبل بعد رحلته إلى المدينة أصابه جدل مع أحدهم بمرض شديد، قال له الحطاب لقد تسممت بالخواء، حلّ فيك خواء يكفي لملء البحار والفضاء بالسموم، .. ولا يخلصك منها سوى عكوف متواصل وتركيز في الكتب دون ان ترفع راسك أربعين يوما، ثم تخرج الى الفضاء والغابات وتركض ألف ميل. يجب ان تخرج منك كميات من العرق والزفير بمقدار الفضاء المحيط بالأرض بمجالها. يجب ان يمتص الكون كميات السموم التي تلقيتها ثم يظل الكون يتمدد بسرعة الضوء لمدة سنة حتى يهدأ ويحتمل السموم التي قذفتها من جوفك وأنت تزفر وتتعرق. ثم تتبخر من البحار مياه بقدر ما فيها وتغسل الفضاء سبع مرات .. وتظل المجرة تئن من وطأة الألم الذي سببته تلك السموم اربعين يوما .. ثم تتلقى كل هذا النور الجديد بعدما تطهر الكون من درن السموم ونتنها وتحله فيك وتظل تتلقاه اربعين يوما.

سبيل الحوريات

أمضى الفتى أربعين عاما يبحث عن اسم الله الأعظم، حتى لقيه طفل في الطريق فقال له دون سؤال انت اسم الله الأعظم.. قال لكني حين عرفت اسم الله لم اعد اعرف ماذا أفعل، فلم أكن أفعل من قبل سوى البحث. فماذا افعل اليوم؟ ناديت الطلفل لكنه لم يعد يسمعني!

حين عزم على الرحيل قال له ناسك في صومعته على طرف الصحراء: يا ولدي يعبر في هذه الصحراء كل يوم خلق كثيرون يبحثون عن اسم الله الأعظم. لكنهم لا يعرفون ولا يعودون. إن بقيت معي هنا تعرف، وإن عدت عرفت .. لكن أحدا لا يعود. ففي هذه الطريق اثنا عشر قلعة وبجوار كل قلعة هيكل. إذا تجنبت القلاع تموت جوعا وعطشا. واذا تجنبت الهيكل تتيه، فلا تجد من يدلك على الطريق. لكنهم في القلعة يطلبون منك ان تخدمهم لقاء الطعام والشراب، فإن أجبتهم تفقد عمرك

وصحتك وكرامتك. وفي الهيكل يرشدونك الى الطريق اذا قرعت لهم الطبول، لكنك تفقد روحك. هكذا تصير تابعا وطبالا ولن تعرف شيئا،..

رحل مشتاقا متلهفا ومكتفيا بما وهب من حماس وصدق وذكاء، ومنتشيا بالرحلة، وبالذات التي تنظر بإعجاب إلى الذات المطلة على الذات!. لكنها غرائز ومواهب جعلته يعتقد بألا فائدة من الوحدة، ولا قيمة للناسك وصومعته، وأن القلعة والهيكل هما سرّ الطريق والحكمة، ومضى إلى هناك مليئا بالثقة والفضول والاستعداد، ..

قال له حارس القلعة لا تقدر على السير وحدك وبذكائك، ولا تستطيع معنا أن تظل فردا كما أنت، لن تكون منا إذا لم تشبهنا، هات ذكاءك وامض. وقالت له حورية في الهيكل حين لامست يده صدرها، لا يمكنك المسير بريئا من غير وهم، هات براءتك وخذ المستحيل؛ فلا تحتمل العناء إلا بما لديك من المستحيل، لكنه صار أبلها متسولا، يكسب قوته بالبلاهة والتسول.

وحين أوى إلى القلعة الثانية معتقدا أنه يستعيد ذكاءه وبراءته، ويستأنف رحلته قاصدا البحث عما ابتدأ به الطريق، لكنه لم يكن سوى أبله متسول يحسب نفسه يبحث عن الحكمة رائدا مستقلا وإن كان منتميا، كان يملك من الصدق والنزاهة ما يجعله يصدق الوهم، أو يحسب أنه قادر على التظاهر بالانتماء وهو متفرد، أو أنه يسير في رحلتين متوازتين رحلة الذات ورحلة الجماعة، وصار يملك من البلاهة ما يحمل نفسه على الانتماء، .. أعجبهم ذلك في القلعة كثيرا، أن يسير في الطرقات بلا

جدوى، ثم يبكي على خطيئته، لكن يجب ألا تكون دائما صادقا، قالت له الحورية يجب ان تكذب لتقدر على العمل، لأنك ستبيع للقوافل سلعا هي غير ما يظنون، فإن أخبرتهم لا نبيعهم شيئا، وحين عانقها بكت بكاء طويلا جعله يحتقر نفسه، .. لكنها صارت تمنحه عناقا كلما أدى عملا، صار هذا العناق تشجيعا على الكذب وتعويضا للاحتقار، قالت له وهي تعانقه مودعة لا يمكن أن تكذب من غير أن تحتقر نفسك وأن تتعرض للاحتقار، إذن لن تعمل ولن تصلي، فلا أنت مفيد لنفسك ولا للقلعة ولا الكهنة، .. هكذا تمضي مزودا بالكذب والاحتقار.

وقال له حارس القلعة الثالثة لا تستطيع البقاء والسير في هذه الصحراء من غير غشّ، فمن لا يغش ليس منا. لا نقدر على توفير احتياجات العابرين في الطريق من غير غش، إذن سوف نخسر، وقالت له حورية الهيكل بحزم اذا لم تكره الناس لا تستطيع أن تغشهم. كانت ترافقه كل يوم في الهيكل دون ان تمنحه شيئا، وأسرّت له كاهنة لا يمكن أن تعمل في القلعة وأنت أنت، ولن تحظى برفقة الحورية وأنت غير قادر على أن تكون غير أنت، فرحل فاشلا وخاسرا، لكنه اكتسب الكثير من الغشّ والكراهية .

لم يجد أحدا في القلعة الرابعة يصلي، ولم يعد يتذكر رحلته، نسي أنه رحل ليعرف الله واسمه الأعظم. ففي هذه القلعة أسواق وسلع كثيرة لا تحصى، وشغلته القلعة في الإعلان والعلاقات العامة، ولم يكن الهيكل سوى بورصة. هكذا صار يسوق لنفسه وللناس الرداءة والوهم، ويقنعهم

أن التفاح يصنع في السوبر ماركت، وأن القمح يزرع في البورصة، .. لكنه ظل يصلي ويصوم كثيرا.

استرح قليلا .. قالوا له في القلعة الخامسة . فالحقل الذي لا يستريح لا يصلح للزراعة. وفي كل مساء كانت الحورية تحتضنه وتمنحه قبلة على خده، ظلّ يذكرها حزينا أسفا .. ورحل.

لقد تعلمت وعلمت نفسك كثيرا، لكن ذلك كله لا فائدة منه، فالسوق يحب التفاهة. كن تافها، قال له الكاهن. في هذه القلعة الكاهن هو الحاكم أيضا، فلا يجوز الفصل بين الدين والدولة. التتفيه سياسة القلعة والهيكل. والتفاهة سلوة العابرين المتعبين. والمتعة عابرة رديئة ومتاحة.

هرب من القلعة برفقة حورية جميلة هادئة، كأنها قدمت من كوكب آخر، قالت له إنها تعرف قلعة تدعنا في شأننا وتحتملنا كما نحن، أحبته الحورية وتعلقت به، وظلا يسيران في الطريق خمسة وعشرين عاما بلا أمل ولا ملل، قالت له لا يمكن أن نخرج من المتاهة ولا أن نبقى في هذه الصحراء بلا يقين، وقال لها لا أمل لي يجعلني أستمر في الحياة سوى الشكّ، بكيا طويلا .. وافترقا، صاحب القلعة أيضا أحبه، وتمنى عليه أن يعمل معه في أرشيف القلعة، وفي المقابل فإنه سوف يغدق عليه كثيرا، وربما يجعله نائبه. قال يا سيدي لم تدع الشبكة للقلاع أرشيفا. وربما لا تظل قلاع ولا هياكل. غضب صاحب القلعة وغضبت الحورية وحكما عليه بالنسيان، .. رحل وصار نسيا منسيا.

وحين هبّ الربيع العربي تذكره من جديد حاكم القلعة، وقال تعال

نواجه الاعداء معا، سأجعلك وزيرا للتغير المناخي. وقالت له حورية الهيكل حان الأوان لننتقم من السفهاء ونعمل لأجل حلمنا. خذل الحاكم والحورية، لكنه أخذ الحلم ومضى.

قرأ للحورية شعرا جميلا أعجبها كثيرا. لكنها جعلت الشعر تراتيل للغواية، وصارت الغواية صلاة. وسئم صاحب القلعة من قسوتها وعزلتها فجعل مملكته محمية طبيعية. وصار يركض في المحمية حاملا روحه على رمحه ليصيد الغزلان وحمر الوحش، .. ويمنح السياح مغامرة جميلة وفرجة واقعية.

مضى في الطريق أو مضت به، ووجد نفسه خائفا يترقب، سمع أغنية تغنيها فيروز «يا راعي القصب» باللهجة الحورانية، .. يخاف الشاعر أن يبوح الناي «بالسر اللي في عروقي»، كأن الناي قوة تعبيرية هائلة تكشف الأعماق وأسرار النفس والحياة والكون،.. الأسرار والمعاني الممكن معرفتها بلا بوح ولا وثائق وإعلان، ما يمكن أن تمنحنا إياه الإشارات والرموز والصور من معان وأخبار وأسرار ومواقف هي على قدر من الضخامة والخطورة تفوق ما يمكن أن تكشفه الوثائق السرية والمحاضر الخاصة والاجتماعات المغلقة والأخبار المكتومة.

كأن الأخبار كلها ما مضى منها وما سيحدث أيضا ملقاة في الفضاء وعلى الأرصفة، وتحوم حول البشر وهم يتحدثون ويظهرون ويسيرون، تتدفق مثل موجات يمكنك التقاطها، مشاهدتها، سماعها، حتى الأسرار التي تختبئ في العروق، الأحلام الصغيرة، قصص الطفولة، والأفكار

والهواجس والعقد والأحقاد والمحبة والكراهية، والمؤامرات والضعف والقوة والرغبة والشك والسؤال والحقيقة (هل يمكن لأحد أن يدرك الحقيقة؟) وفي التراث: العيون مغارف، والإناء ينضح بما فيه، وزلات اللسان والعين في لحظة بالغة الصغر والدقة لعلها تقل عن عشر ثانية، تفيض بأخبار وقصص وأسرار وتوقعات، «خائنة الأعين وما تخفي الصدور». ما كان وما هو كائن وما سيكون، يكاد يكون كتابا مقروءا، ..

كانت واحدة من الجماعات تملك قلعة وحصة كبيرة من الطريق، تبدو مثل قافلة جميلة زاهية تعبر الطريق، تخوض الحروب وتجذب الشباب والصحافة والإعلام مثل الفراش إلى النار، .. أطل أبو سليم قائد الجماعة مثل سمندل يتخفى في الكهوف الرطبة، بعد معركة طويلة بدت كما لو أنها نهاية الجماعة، كان يتحدث من قبل كثيرا ويطل في حديث متدفق حيوي، لكنه اليوم ليس أبو سليم في قدرته وبلاغته وحججه، ولا في طلته الجذابة مثل فنان وسيم، لم يكن يوما بحاجة إلى أن ينظر في ورقة أمامه ويطيل النظر والتفكير، ثم يقول شيئا لا يحتاج إلى ورقة، كأنه يفكر فيما لا يقوله وليس ما يقوله، هو يعلم أنه يجب أن يقول غير ذلك، وأنه ينتظر منه غير ذلك، ويستطيع لو كان قادرا أن يقول! هذا الارتباك، وتلك النظرة، وهذه الملامح تخفي الكثير وتبوح به أيضا، لا تنسجم أبدا مع حديث مسجل يعد بهدوء، أبو سليم كان يرتجل بتدفق وقدرات تفوق بكثير هذا الحديث المسجل المكتوم كأنه أنين وحشرجة، والمكان الذي يتحدث منه، الورق الملصق على الجدار خلفه، والأعلام الموضوعة على عجل تشي بأنه مكان

يبعث على الضيق والألم، والخوف أيضا، يبدو أقل بكثير من المكان الذي كان يظهر منه أسامة بن لادن في أحاديثه المتلفزة، كأنها النهاية، نهاية كل شيء، التيه الكبير مرة أخرى، الآمال الكبيرة، والملاحم والذكريات والجماعات، كأنها مسلسل مكسيكي انتهى اليوم، كأننا على موعد مع عالم جديد بلا جماعات ولا طرق ولا قلاع ولا هياكل ولا حوريات! كأننا على موعد مع نهايات أخرى متجددة، الحزن والرحيل والفناء والموت «والدم المراق بلا انتهاء»، كيف نفلت من رحلات ومغامرات صيد الرجال القادمة، المبهجة والمسلية؟ كيف لا نعرف أننا لسنا ديناصورات؟ كيف نعرف أن ذلك النجم في السماء لا يصلنا منه سوى ضوئه، ولكنه فني قبل ألف عام؟ أضغاث أحلام تشبثنا بها، تردد مع السياب «يمضي الرجال ويبقى السراب»، تبشرنا بأننا سنتحول إلى بوسترات و«تي شيرتات» مزينة بالصور والقصص، والأشباح المتدفقة في صناديق الانتخابات، وتذكرنا بالبدايات، كأنها مصادفات شكلت الدول والتاريخ والجماعات والحروب، بدايات كلما عدنا إليها ننسى،.. نتحايل على حماقاتنا بالنسيان، ولكن البداية أقوى دائما.

كانت كلمة أبو سليم تشبه رسالة الزير سالم التي عاد بها مرافقاه: من مبلغ الحيين أن مهلهلا   لله دركما ودر أبيكما» فقرأت اليمامة ابنة أخيه الرسالة بأنها:

من مبلغ الحيين أن مهلهلا   أضحى قتيلا في الحي مجندلا

لله دركما ودر أبيكما   لا يبرح العبدان حتى يقتلا

قال له الحاكم لن تكون درويشا إلا إذا كنت لا تعرفني ولا أعرفك. عضت الحورية شفتيه، وقالت أريد أن أكون أنت، لكنها أحبته درويشا، وكان لا يقدر على حبها إلا إذا تخلى عن سبيله.

قال الدرويش: هكذا أمضيت أربعين سنة تائها في الارض وقلاعها وهياكلها، تلقاك في كل هيكل حورية. ثم ترحل وقد تخليت عن شيء منك وتأخذ شيئا ليس لك. فلا تعود أنت ولا تصبح غير أنت. لكن حين تجد أنك لست سوى أصفار واحاد.. تصفهما معا فتكون أنت كما تصطف وتتعاقب الأصفار والآحاد. ولا يعود لك سوى النور الذي يجمع الارقام ويصفها ويمضي بها في مدارها؛ تعود الى صومعة أبيك ولا تجده فيها. فتجلس وتقول للعابرين يا ولدي هذه الصحراء يعبر فيها كل يوم خلق كثيرون.... لكن أحدا لا يسمعك، فيمضون ولا يعودون ولا يعرفون، وتظل وحيدا تعكف على اصفارك وآحادك.. وتتذكر!

الندم

منذ اكتشف الطاقة السلبية التي تبعثها كلمة أنا علّم عيسو نفسه ألا يلفظها أو يكتبها بأي حال.. وبعد عشر سنوات من التدريب والممارسة في التعبير والتواضع شعر انه تغير إيجابيا إلى حد انه رأى نفسه إنسانا جديدا مختلفا عما كان عليه من قبل. لكنه وجد أن أحدا ممن حوله من الناس لم يلاحظ تغييرا في سلوكه وذوقه واسلوبه في الحياة والعمل والتواصل. لم يلاحظ ذلك سوى بومة صارت تأوي إلى شرفته كل يوم..